الأثنوجرافيا والسوسيوجرافيا في الإطار الجغرافي

لبلاد المغرب العربي

من خلال رحلة أبي عبدالله محمد ... العَبْدَرِىّ

المتوفى بعد سنة " ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م"

(بين الموضوعية في النقد والتطرف في الرأي)

د. عادل يحيى عبد المنعم

مدرس منتدب – كلية التربية بجامعة عين شمس "سابقًا"

Mail; Adelyehia71@ yahoo.com

مقدمة – :

تُعد كتب الرحلات من أهم المصادر التى يمكن أن يُعتمد عليها فى التأريخ للمجتمعات ؛ فبالإضافة إلى أنها تطلع القارئ على كثير من الجوانب الجغرافية للأقطار التى يمر بها صاحب الرحلة ؛ فإنها أيضا تلعب دوراً هاماً فى تعريف الباحثين بكثير من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية لتلك الأقطار .

وفى هذا مايعنى أن كتب الرحلات تعد وثيقة هامة للعصر الذى تعبر عنه فى كافة المجالات السابقة الذكر ؛ ومما يزيد من أهمية كتب الرحلات قيام صاحب الرحلة – أيا كان شخصه – بلقاء العلماء والشيوخ والأساتذة وطلاب العلم من أقرانه ؛ فضلاً على اطلاعه على بعض الجوانب العلمية والتعليمية ، ووصفه للأجناس التى يلتقى بها فى الأقطار التى يقصدها . ومثل هذه الجوانب جميعها يمكن أن يعبر عنها من خلال مصطلحى"الإثنوجرافيا والسوسيوجرافيا " بمعنى وصف الأجناس والمجتمعات البشرية ، وهو ماسوف يتم التعريف بهما فى متن الدراسة .

ولا تمتد هذه الأهمية المذكورة لكتب الرحلات الى كافة كتبها ، بل إن بعضها منها يستغرق فى وصف العجائب والأساطير والغرائب ، ويقف العبدرى هنا – وهو صاحب الدراسة التى أتقدم بها بين أيديكم – منفرداً من حيث أنه ذكر الأرض والناس على حد سواء؛ أى ذكر الأجناس والمجتمعات وهو ما أغفله بعض الرحالة بعده .

وقد كان دافعى إلى كتابة موضوعى هذا هو ما أحالنى إليه العالم الجليل أ . د رشدى فكار فى حديثه عن الأثنوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف بهما فى مدَخِلهمَا برحالة الإسلام ؛ هذا فضلاً على رغبتى فى استجلاء حقيقة انتقادات العبدرى فى رحلته ، ومدى موضوعيته وتطرفه ، ومدى تطابق انتقاداته مع ظروف عصره السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بما يكشف عن صدقه أو تحامله ؛ ولست أهدف من هذا كله إلا الوصول إلى الحقيقة ،وهى جل أهداف الدراسة التاريخية ، ولعل فى هذا مايفتح الباب أمام طلاب العلم وباحثيه نحو آفاق بحثية جديدة تسعى إلى إعمال العقل حول كثير من آراء الرحالة والجغرافيين ، خاصة تلك التى تخالف انتقاداتهم ظروف عصرهم مثل :– ابن حوقل

فى حديثه عن الأندلس فى عصر عبدالرحمن الناصر ، كما أن هناك بعضاً من الرحالة يقصرون اهتماماتهم على ذكر الأعلام من العلماء والأساتذة وشيوخ العلم مثل : ابن رشيد السبتى فى رحلته ، والتجيبى فى برنامجه وكلاهما رحالتان من أصل سبتى .

وقد يقول قائل أن مثل هؤلاء الأعلام من الجغرافيين والرحالة قد سبق دراستهم فى كثير من البحوث والدراسات التاريخية ؛ بيد أن تناول بعضاً منهم من زوايا مختلفة ، قد يكون مفيداً لتجديد دم البحث العلمى فى مثل هذه الجوانب الهامة من الحضارة الإسلامية .

وأدعو الله – سبحانه وتعالى – أن يوفقنى ، وأن يجعل عملى هذا خالصا لوجه ، سبحانه إنه نعم المولى ونعم النصير .

التعريف بأهمية كتب الرحلات : –

لا يسأم الباحث من الحديث عن أهمية كتب الرحلات وتكراره خاصة إذا ما تعلق بها موضوع بحثه ، ولعل من المناسب أن يكون التعريف بأهمية كتب الرحلات من خلال ما قاله ابن زاكور الفاسى فى أهمية الرحلة مشيراً إلى أنها " منة من الله ونحلة ، تكسب الغليظ الطباع ، غاية الرقة والانطباع ، وتعقب من كابد لها نصباً علماً غزيراً وأدباً (1) . "

ولما كان صاحب الرحلة يلتقى بكثير من الأعلام من أهل العلم والأدب ، ويحصل على كثير من إجازاتهم العلمية ؛ فإن كل هذه الجوانب تساهم فى رقة طباعه ، وبعده عن الغلظة والفظاظة ، وحصوله على العلم الغزير ، وهو مايفسر قول ابن زاكور . هذا وقد حاز المسلمون – فى العصور الوسطى – قصب السبق فى ميدان الرحلات (٢) ، وكانت الرحلة إلى الأراضى الحجازية أحد الأسباب التى تدفع بالرحالة إلى رحلته ؛ فضلاً على أن الرحلة تعد من أهم عوامل الترابط والتواصل بين أنحاء العالم الإسلامى فى عصور القوة والازدهار الحضارى ، بل يمكن النظر إليها باعتبارها من أهم خصائص المجتمع العربى الإسلامى .(3)

وفى رأيى أن كتب الرحلات تندرج ضمنياً تحت كتب الجغرافيا عامة ، وتصنف معها ، وقياساً على ما قاله د . مؤنس بشأن التأليف فى الجغرافية عند المسلمين ، وأن هذا التأليف كان يصدر عن النزوع العام نحو المعرفة الذى امتازت به أمم الإسلام فى عصر النهوض ، وهو مظهر من مظاهر الشعور بالعزة يصاحب الأمم الصاعدة (٤) ؛ فإنه يمكن القول أن نزوع المسلمين نحو الرحلة فى العصور الوسطى كان ينبع من هذا النزوع العام نحو المعرفة ، ونحو الشعور بأن السيادة لا تكون إلا بالعلم والمعرفة .

وإذا كانت الرغبة الصادقة فى أداء فريضة الحج والذهاب إلى الأماكن المقدسة تأتى فى مقدمة أسباب القيام بالرحلة ؛ فإن هذا لا يلغى أن أسباباً أخرى كانت تدفع نحو القيام بالرحلة مثل : الولوع بالسياحة وارتياد الآفاق ، وإرسال السفراء من قبل الملوك ، والتغرب من أجل طلب العلم ، أو بغية التعرف على كبار العلماء ، ومرافقة الكتاب للملوك ولرجال الدولة فى أسفار رسمية (5) .

كما كان لاتساع الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً أثره فى اتساع آفاق الرحلات

التجارية ، والتى اعتادها العرب منذ عصر الجاهلية ؛ وقد أدى هذا إلى ارتباط الأسواق الإسلامية فى المشرق والمغرب فيما بينها (٦). وكان المغرب العربى حلقة الوصل بين المشرق والأندلس ؛ وفى هذا الإطار فقد ذكر المقرى فى نفحه باباً خاصاً بذكر الوافدين إلى الأندلس من المشرق ، وذكر الوافدين إلى المشرق من الأندلس (٧) ؛ فيما يعنى أنه لم تكن هناك ثمة حدود فاصلة بين كافة جهات العالم الإسلامى ، بل كانت الرحلة لطلب العلم ولقاء الشيوخ والتجارة وغيرها مما سبق ذكره من الأمور المتاحة للجميع .

بيد أن حنين أهل المغرب الإسلامى – بمن فيهم أهل الأندلس والمغرب العربى

عامة – إلى الأماكن المقدسة ؛ هو مايدفع إلى القول بأن رحلات المغاربة إلى المشرق كانت تفوق كثيراً رحلات المشارقة إلى المغرب ، وعلى أية حال فقد زادت الرحلات فى ديار الإسلام منذ القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، حسبما تقول بذلك

د . سيدة كاشف ، (٨) وأخذ المغاربة فى الإقبال على الرحلات والتنافس فى الإجادة فيها خصوصا فى القرنين (٧ ، ٨ هـ /١٢ ، ١٣ م) (٩) ، وهو مايعادل فترة القرن السابع الهجرى ؛ وهى الفترة التى قام فيها العبدرى برحلته .

وإجمالاً فإن أدب الرحلات يمكن أن يعد مادة خصبة للكشف عن صور البلدان والشعوب ؛ وهو المعين الذى يستقى منه أهل أية أمة معلوماتهم عن الأمم الأخرى (١٠) ، وهو مايعنى أن أهمية كتب الرحلات تكمن فى الكشف عن عديد من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية للمجتمعات التى يجوبها صاحب الرحلة (١١) ، وهو ماسوف يتم بيانه فى رحلة البعدرى ؛ إلا أن هذا لن يتأتى إلا قبل التعريف بالعبدرى ورحلته وظروفه عصره وهو ماسوف يتم بيانه فى الجزئية التالية– :

التعريف بالعبدرى وظروف عصره والأسباب الداعية إلى رحلته وأهميتها

أولا : التعريف بالعبدرى وبداية رحلته – :

هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن على بن أحمد بن سعود العبدرى ، وينتهى نسبه إلى عبدالدار بن قصى بن كلاب وإليه نسبته (١٢) ؛ ويشير د . كردى فى مقدمة تحقيق

الرحلة إلى أن المصادر لم تسعف بمعرفة تاريخ ميلاده ، وكل ما يمكن قوله أنه قام برحلته وهو فى عنفوان عمره ؛ وهو ما أوضحه شيخه الدباغ عندما أهدى للعبدرى كتبه عند دخول الأخير إلى القيروان قائلا له : " أنت أولى بها منى ، فإنى شيخ على الوداع ، وأنت فى عنفوان عمرك (13) " .

وفى إطار التعريف بالعبدرى أيضا ؛ يذكر د . مؤنس عن الرجل أن أصله من بلنسية بالأندلس ، بيد أنه يشير إلى أن هناك من ينفى هذه النسبة الأندلسية عنه ، ولعل المرجح أنه مغربى من أصل عربى قرشى يرجع إلى بنى عبدالدار كما سبق القول ، وقد يكون أصل بيته من بلنسية ، ثم هاجر إلى المغرب ، واستقر به الحال فى الأقليم الذى ينسب إليه قبيلة حاحة المصمودية ، وهو يعتبر منطقة حاحا بلده (١٤) ؛ بيد أن من الأهمية بمكان هنا الإشارة الى ما قاله د . مؤنس – رحمه الله – أن تاريخ الثقافة العربية فى الغرب الإسلامى كله لا يعرف التفرقة الحاسمة بين أندلسى ومغربى . (15)

ورغم أن تاريخ ميلاد العبدرى ووفاته غير معروفين للعلماء ؛ إلا أن العبدرى فى رحلته يطلعنا على السنة التى بدأ فيها رحلته قائلا : – " كان سفرنا – تقبله الله تعالى – فى الخامس والعشرين من ذى القعدة عام ثمانية وثمانين وست مئة ، ومبدؤه من حاحة " ، كما يذكر العبدرى أيضا أنه قام بتقييد رحلته فى تلمسان ، وأنه أظهر هذا التقييد بعد خروجه منها قائلا فى ذلك– :

"وهذه الرحلة بدأت بتقييدها فى تلمسان ، ولم يمكنى إظهارها هنالك ، وأظهرتها بعد خروجنا منها " (١٦) ولعل فى هذا القول مايشير إلى بعض شواغله التى حالت دون إظهار تقييده للرحلة إلا بعد خروجه من تلمسان .

وفيما يتعلق بنشأة العبدرى العلمية والثقافية ، فالرحلة لاتشير الى شئ من هذه الجوانب ؛ بيد أنه لا يمكن تخيل نشأة البعدرى دون ارتباطها بظروف عصره والنشأة الدينية التى تهدف الى تعليم علوم الدين واللغة والأدب وغير ذلك مما ينبغى معرفته لطلاب العلم وقتذاك ، وهناك دراسات مغربية تذكر عن العبدرى أنه من أسرة علم ، وأن أباه يحلى بالشيخ الخطيب ، وأن أخاً له رافقه فى رحلته ، وكان من أهل العلم أيضا ، والمرجح أن التنشئة

العلمية الأولى للعبدرى كانت على يد والده ، وإن لم يذكر ذلك صراحة (١٧) ؛ وفضلاً على ذلك فإن الباحث المدقق يستطيع أن يدرك مدى إلمام العبدرى بعلوم اللغة والأدب ، وكثيراً مايذكر فى بعض المواطن من رحلته أسماء شيوخ له فى أماكن شتى مما يدل على سعة علم الرجل وتعدد معارفه ، فهو عندما يذكر مصر يشير إلى استحسان نفر من شيوخه لتقييده لرحلته ويذكر فى هذا قوله – :

"وكان شيخنا زين الدين بن المنير – حفظه الله – يستحسن مايقف عليه منها " (١٨) وعندما يحل بالقيروان لا يستنكف على " الشيخ الدباغ " أن يقرأ عليه بعضاً مما يتضمنه برنامجه من مرويات شيوخة ، (١٩) ، وعندما يقضى به الحال إلى ذكر مراكش يشيد بحال شيخه الفقيه القاضى الأوحد الإمام قاضى الجماعة " محمد بن على بن يحيى الشريف " داعيا له قائلاً –:

"قدس الله تربته ، وآنس فى قبره غربتـه ، فإنه كـان – والله – زين الدنيا

والدين " (٢٠) ، ويضاف الى هذا ذكره لكثير من أعلام العلم ممن التقى بهم فى تونس وغيرها من جهات المغرب العربى ، وحرصه على القراءة والإجازة ممن عرفهم من العلماء ، أو ممن استحسنهم من أهل العلم ، فى هذا كله مايدل على ثراء الرجل وتنوع معارفه الدينية والأدبية .(21)

ويشيد الأستاذ محمد بن تاويت باتصال العبدرى بالقاضى ابن عبدالملك ، صاحب الذيل والتكملة ؛ مشيراً إلى أنه كان يضاهيه فى المرتبة العلمية ، وأن العبدرى كان يذكره بقوله : " صاحبنا الفقيه الأديب الأوحد " وهو مايدل على أن العلاقة بينهما كانت علاقة الأقران لا المشيخة ، ويتخلل رحلة العبدرى الكثير من النماذج الأدبية له – سواء أكانت شعراً أم نثراً – مما يدل على مواهبة الفنية الرائعة بما يصدق عليه القول بأنه " أديب قبل أن يكون فقيها " على حد قول الأستاذ بن تاويت الطنجى (22) .

هذا وقد بدأ الرجل رحلته من بلاد حاحة ، ولم يركب البحر إلى الأندلس كما فعل غيره ، بل سلك طريق البر ، جنوب المغرب نحو مدينة تلمسان التى بدأ بها كتابة رحلته ثم واصل سيره ماراً بكافة جهات المغرب العربى حتى وصل إلى طرابلس ، ومنها الى القطر

المصرى ، ثم غادر القاهرة الى العقبة ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول – صلى الله عليه وسليم – وبعد الحج عاد إلى مصر عن طريق فلسطين ، ومنها إلى المغرب حيث توقف فترة بتونس ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى وطنه ومسقط رأسه ، وقد استغرقت رحلته تلك نحو سنتين (٢٣) وفى ختام هذه الجزئية يمكن القول – استقراءً – أن وفاته كانت بعد سنة " ٧٠٠هـ /١٣٠٠م " أو أنه عاش أواخر ق ٧ هـ /١٣م ، وربما امتد به الأجل الى أوائل ق " ٨ هـ /١٤ م " ، وأياً كان الأمر ، فلا يمكن الوقوف على انتقاداته وتحليلها دون معرفة العصر الذى عاش فيه العبدرى ، وهو ما سوف يتم توضيحه فى الجزئية التالية – :

ثانيا : ظروف العصر الذى نشأ فيه العبدرى –:

لست أقصد من خلال هذه الجزئية الإسهاب فى الحديث عن الظروف السياسية إلا بالقدر الذى يخدم موضوع البحث ؛ وبداية أستطيع القول بأن رحلة العبدرى تزامنت مع بدايات النشأة السياسية للدولة المرينية فى المغرب الأقصى ، وحتى يكون القول أكثر تحديداً فقد تزامنت رحلة العبدرى مع ولاية أمير المسلمين " يوسف بن يعقوب بن عبدالحق " الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة " ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م " وكانت وفاته سنة

706 "هـ / ١٣٠٦م. (24) "

والدولة المرينية هى إحدى ثلاث دول قامت فى بلاد المغرب العربى على أنقاض دولة الموحدين الكبرى ؛ وهى الدولة الحفصية فى المغرب الأدنى ، (٢٥) والدولة الزيانية

"أو دولة بنى عبدالواد " فى المغرب الأوسط (٢٦) ، ثم الدولة المرينية فى المغرب الأقصى ، وقد بدأ أصحاب الدولة الحفصية كولاة للموحدين فى إفريقية ، ثم سرعان ما أحسوا بقوتهم ، فأعلنوا انفصالهم فى كيان سياسى مستقل ، وبدأ بنو عبدالواد وبنو مرين فى شكل تحركات قبلية ، كل فى منطقته ، إلا أن بنى مرين كانوا أكثر تنظيما وتوحداً وقوة ، فمثلوا كياناً سياسياً متحداً ، فى حين لم تنجح الدولة الزيانية فى الابتعاد التام عن الشكل القبلى . وقد استمرت الدولة المرينية حتى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، ووقعت خلالها ، تحت النفوذ العثمانى .

وفى هذا مايعنى أن منطقة المغرب العربى كلها – أو أغلبها – لم يكتب لها أن تُحكم من خلال دولة واحدة مثلما حكمته دولة الموحدين من قبل ، فآل أمره إلى التفكك بعد

الوحدة (٢٧) ؛ وهو مايدفع إلى القول بأن رحلة العبدرى جاءت فى ظل فترة التفكك السياسى الذى عانت منه البلاد . ومن الأمور التى يمكن استقراؤها من خلال تلك الفترة – دونما التوغل فى سرد الأحداث السياسية التى تخرج عن قصد موضوع الدراسة – أن الصراع بين الدول الثلاث كان سمة أساسية فى تاريخ كل منهما ؛ فعلى الرغم من أن بنى زيان ، والدولة المرينية كل منهما يعد فخداً من زناتة ، إلا أن الصراع كان بينهما شديداً ، ومن جانب آخر كان هناك صراع بين بنى زيان وبنى حفص . (28)

وفى مثل هذه الظروف التى عاشتها بلاد المغرب العربى كان من الطبيعى أن يلقى هذا التفكك السياسى بظلاله على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ؛ ومن الطبيعى أيضا ألا نجد أعلاماً فى قدر ومكانة ما كان من أعلام العصرين المرابطى والموحدى وماتمثله تلك الفترة من قيام الدول الكبرى التى استطاعت أن توحد بين أغلب أجزاء المغرب العربى ؛ وقد يترتب على هذا ألا تكون سوق العلم أو الفقه والأدب مزدهرة بنفس الصورة التى كانت عليها من قبل فى عصر الموحدين إذا ما أخذ فى الاعتبار تفكك امبراطورية الموحدين فى الأندلس فى أعقاب موقعة العقاب وما تلاهما من أحداث ، رغم أهمية الدور الدفاعى الذى اطلع به بنو مرين فى مساندة أهل الأندلس .(29)

ومن هنا فمن المرجح أن يكون العبدرى على حق فى بعض انتقاداته ، إن لم يكن فى كثير منها ؛ ورغم ذلك لا يمكن أن تؤخذ انتقاداته على عواهنها دون إعمال للعقل فيها ، ومعرفة الظروف المحيطة بالمنطقة التى يتحدث عنها ، دونما إغفال لطبيعة شخصية العبدرى نفسه وما قاله بعض الباحثين بشأنه ، فلا يمكن أن تلوى عنق الحقيقة التاريخية لتتفق مع انتقادات العبدرى ، وفى الوقت نفسه ليس من الموضوعية طمس معالم هذه الحقيقة لتعبر عن صحة تلك الانتقادات أو عدم صحتها ، ومثل هذه الرؤى تبدو واضحة للقارئ فى متن الدراسة ، ومن خلال رحلة العبدرى وأقواله فى وصف الأجناس والمجتمعات البشرية بالمغرب العربى ، وهو مايعبر عنه – كما ورد فى عنوان البحث – بالأثنوجرافيا

والسيوسيوجرافيا ، وهو ماسوف يتم التعريف بهما عقب الحديث عن أسباب رحلة العبدرى وأهميتها .

ثالثا : الأسباب التى دعت العبدرى للقيام برحلته وأهميتها –:

جاء فى مقدمة تحقيق رحلة العبدرى أن الذى حمله على المضى فى رحلته سببان هما – :

أداء فريضة الحج (٣٠) ، مما يدل على أن السبب الرئيسى للرحلة كان دينياً ؛ وفى هذا الإطار فقد أوضح العبدرى فى متن رحلته فصلا بعنوان حكم السفر ، ذكر فيه أنه سافر " لقضاء فريضة الله على العباد " وفى موطن آخر ذكر أنه اكترى داراً بمكة لتحقيق غرضه هذا (٣١) ، أما السبب الثانى فى رحلة العبدرى هو رغبته فى لقاء العلماء والشيوخ والأخذ عنهم ؛ وقد ظهر ذلك واضحا أثناء إقامة الرجل فى تونس ، وانشراح نفسه بمن قابلهم من الشيوخ وأساتذة العلم ،خاصة إذا ما حاز هؤلاء الشيوخ على إعجاب العبدرى. (32)

وقد تكون هناك أسباب أخرى دفعت العبدرى للقيام برحلته ، ومثل هذه الأسباب لا تخرج عما سبق ذكره فى مقدمة الحديث عن أهمية كتب الرحلات ؛ وفضلا على ذلك فقد حث القرآن الكريم على الاعتبار من الأسفار ومشاهدة الديار ، وتأمل آثار ومنازل الأمم السابقة كما جاء فى قوله عز وجل " أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ" (٣٣) وفى هذا الشأن أيضاً قوله سبحانه وتعالى

"فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ " (٣٤) أو كما جاء فى آيه أخرى

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ "(٣٥) ومثل هذه المعانى والأهداف لم تخف عن العبدرى ، بل أنه ألمح إليها فى قصيدة له فى بداية رحلته . (36)

وتبقى هنا الإشارة الى أهمية وقيمة الرحلة من الناحية العلمية ؛ فقد حملت الرحلة طائفة من المعلومات والقضايا العلمية التى أخذها العبدرى من صدور العلماء مشافهة ، وهو ما يجعلها تعد وثيقة مهمة عن الحياة الثقافية فى أواخر القرن " ٧ هـ / ١٣ م " فى البلاد الى مر بها العبدرى والتقى بعلمائها ، هذا فضلاً على ترجمته لكثير من أعلام العلم والفقه والأدب ممن التقى بهم وأخذ عنهم ، يضاف إلى ذلك قيمتها الجغرافية والتاريخية ، واحتوائها على كثير من النصوص الأدبية التى تفيد دراسى الأدب. (37)

بيد أن مايهم البحث من خلال أهمية رحلة العبدرى هى تلك الجوانب المرتبطة برؤى العبدرى النقدية ، ومدى تطرفه فى النقد أو موضوعيته ؛ بمعنى أنه لا يهم إبراز المظاهر السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية بقدر ما يصبح الهدف من تلك المظاهر استجلاء انتقادات العبدرى ، وإعمال العقل حول طبيعة هذه الانتقادات هل هى موضوعية ، أم يشوبها المغالاة والتطرف ؟ ! ولا يبقى لى أخيراً من خلال مقدمة هذا البحث سوى التعريف بمفهومى " الأثنوجرافيا ، والسيوسيوجرافيا "

مفهوما الأثنوجرافيا والسوسيوجرافيا-:

لعل أهم ما لفت انتباهى إلى أهمية استخدام مثل هذه المفاهيم فى مجال بحثى هذا هو ماكتبه العالم الجليل أ . د . رشدى فكار – رحمة الله عليه – فى حديثه عن الأثنوجرافيا والسوسيوجرافيا من خلال ماكتبه رحالة الإسلام .

وبعيدا عن الخوض فى دراسات متخصصة فى مثل هذه المفاهيم ؛ بيد أن الهدف هنا الإشارة بإيجاز الى مايمثله المفهومان من معنى ، فالأثنوجرافيا تعنى دراسة وصفية للشعوب ، وتتكون من مقطعين أولهما : – أثنوس (Etnos) بمعنى شعب أو عشائر أو قبائل ، وثانيهما : – جرافى (Graphie) وتعنى دراسة أو وصف أو رصد أو تصوير ، فالمصطلح فى رأيى يعنى وصفا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ودينيا للأجناس التى يمكن أن يلتقى بها الرحالة فى رحلته ، فهو وصف شامل للمجتمع بما فيه من أجناس وأنماط اجتماعية .

"وإذا ما أضيف الى ما سبق قوله توضيح معنى المفهوم الثانى (وهو السوسيوجرافيا) والذى ينقسم إلى مقطعين أحدهما : – سوسيو بمعنى مجتمع ، والآخر جرافي بمعنى وصف أو رصد أو تصوير كما سبق توضيحه ؛ فإن هذا يعنى أن كلا المفهومين متصلين ببعضهما ، وأن ثمة علاقة وثيقة بينهما ، فالمجتمعات ماهى إلا عشائر أو قبائل ، أو أجناس يتم رصدها ووصفها ، اللهم إلا لو كان المصطلح الأول يعد مدخلا للدراسات الأنثروبوولجية ، والمصطلح الثانى يعد مدخلا للدراسات السوسيولوجية طبقا لمحاولة د . فكار التعريف بهما فى مدخل كتابه السابق الذكر . (38)

وعلى أية حال فليس الهدف من بحثى هذا التطرق إلى مثل هذه الجوانب التى قد تعد مجالا خصبا لأصحاب الدراسات النفسية والاجتماعية من علماء النفس والإجتماع . بيد أن المؤرخ أو الرحالة فى وصفه لمن يلتقى بهم يعد مستخدماً لمثل هذه المفاهيم أيضا ، وهو ما يعنينى فى بحثى هذا . فالمتأمل لرحلة العبدرى يجد وصفاً لكافة بلدان المغرب العربى ، كما يجد أيضا ذكرا للأوضاع السياسية والثقافية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية ، فإن لم يكن هذا كله يدخل فى الإطار الأثنواجرافى والسوسيوجرافى للمجتمعات المغربية ؛ فتحت أى تصنيف يمكن أن تسمى هذه الجوانب ! ولعل فى هذا مايعبر عن الدافع نحو اختيار عنوان البحث بهذا الشكل .

ورغم أن رحلة العبدرى تشمل ذكراً لبلدان المغرب ومصر والحجاز والشام ؛ إلا أننى قصرت الدراسة هذه على بلدان المغرب فقط ، وهى البلاد التى ينتمى اليها العبدرى ، وذلك فى محاولة لبيان حقيقة آراء وانتقادات العبدرى – وهو المغربى من أهل حاحا – عن بلدان المغرب العربى ومدى موضوعيته فى النقد ، أو تحامله وتطرفه فيه ، مدفوعاً فى ذلك بما قيل عن العبدرى وتحامله وتطرفه فى النقد ، ووصفه بالتعقيد والتزمت والتشدد (39) .

وفى الحقيقة – وكما سيتضح للقارئ من خلال البحث – أن العبدرى كان لايقتصر على ذكر السلبيات فقط ، ولكنه كان يذكر الإيجابيات أيضا ، وإن كان مقلاً فى ذكره لها ، إلا أن الرجل كان يعى تماما ماتحمله كلمة " نقد " من معنى ، فكان يذكر السلبيات والإيجابيات على حد سواء ، ولكنه مال الى ذكر السلبيات كثيراً ، فهل كان مشتطاً فى

نقده ؟! هل كان متحاملاً ، معقداً ، متطرفاً ، متشدداً ، أم كان موضوعياً فى نقده؟!. هذا ماسوف تجيب عنه صفحات البحث ، هذا ويمكن الحديث عن الآراء التى اشتملت عليها رحلة العبدرى من خلال الجوانب التالية– :

الجوانب السياسية

–رؤية العبدرى السياسية لظروف عصره –:

يبدى العبدرى رؤيته عن ظروف عصره قائلا : " وقد تعطل فى هذا العصر موسم الأفاضل ، وتبدد فى كل قطر نظام الفضائل ، وتفرّق أهلها أيادى سَبا ، وصاروا حديثاً فى الناس مستغربا ، فعادوا اسماً بلا مسمى ، وحرفاً مادل على معنى ، فالمحدث عنهم فى مشرق أو مغرب كالمحدث عن عنقاء مُغرب (40) "

وفى حقيقة الأمر أن هذه الرؤية وإن كان قد يشوبها شئ من التطرف فى النقد ، إلا أنها تعبر – إذا ماتم إسقاطها على المنطقة المغاربية – عن طبيعة الانقسام السياسى الذى مُنيت به المنطقة من خلال الدول التى تقاسمت منطقة المغرب العربى بعد سقوط دولة الموحدين على النحو السابق ذكره فى مقدمة الحديث عن الظروف السياسية لعصر العبدرى، صحيح أن بدايات كل دولة كانت تشهد شيئاً من القوة والازدهار فى كثير من المجالات ، إلا أن الانقسام الى ثلاث دول فى حد ذاته كان يعد أمراً مستغرباً وهو ما وصفه العبدرى بشئ من المبالغة ، فالانقسام والتفرق والتشرذم ، والتنازع بين كل دولة على حدة ، كل هذه الأشياء كانت تعد أمراً مؤسفاً ومستغرباً ؛ ومن المرجح أن يتأثر المواطن العادى بتلك الظروف ، وينعكس ذلك على أخلاقيات أهل المغرب ، ولعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت أن العبدرى هنا – وهو ليس مؤرخا – يمتلك حاسة تاريخية تعتمد على التفسير الشعبى لأحداث تاريخية ، ولما يمكن أن يصيب الناس من جراء تفكك الظروف السياسية .

وتدفع هذه الرؤية بالعبدرى إلى حديثه عن " المُلك " حيث يقول –:

.. "وقد صار الملك الذى هو نظام الأمور وصلاح الخاصة والجمهور ، فى أكثر الأرض منقوض الدعائم ، مهدوم القوائم ، يدعيه كل غوىّ ، كالمليكشى ، وعبدالقوى ؛

رضوا باسم الملك وإن فاتهم معناه ، وادعوه وما لهم منه إلا أسماؤه وكُناه ... (٤١)" . وفى هذا النص يمكن استقراء بعض الجوانب فى مقدمتها .

-اعتراف العبدرى بأن نظام الحكم هو الأساس فى صلاح أمور الخاصة والعامة على حد سواء .

-رؤية العبدرى فى نظام الحكم الذى يعبر عنه باسم " الملك " بأنه : " منقوض الدعائم ، مهدوم القوائم " بما يشير إلى أن نظاماً سياسياً معيناً كان العبدرى يرتضيه فيما مضى ، وأن مثل هذا النظام أصبح فى عصره يفتقد الأركان الصحيحة لوجوده ، ولا أزعم من خلال هذا التحليل أن العبدرى يعد فى مصاف المؤرخين ، لكنه على أية حال يعد صاحب رؤية سياسية ، وحاسة تاريخية ، بل إن هذه الحاسة تكاد تشمل كثيراً من رحالة المسلمين فى العصور الوسطى ، بما لدى البعض منهم من ثقافة موسوعية ، واطلاعهم على كثير من الجوانب ، وإن كان منهم من يصف أحوالاً سياسية كاذبة ، كتلك التى قال بها ابن حوقل فى وصفه لأوضاع الأندلس فى عهد عبدالرحمن الناصر خليفة المسلمين " ٣٠٠-٣٥٠ هـ / ٩١٢ -٩٦١ م . (42) "

-لا أريد أن أحمل الأمور فوق ماتحتمل ؛ بيد أن فى قول العبدرى عن الملك أيضا بأنه

"منقوض الدعائم ، مهدوم القوائم " مايشير الى أن الرجل كان يدرك ما تعنيه الخلافة ، وما يعنيه نظام الملك أو الحكم ، وما يرتبط به من شروط ومواصفات ورد ذكرها فى كتابات متخصصة ، وإن مثل هذه الشروط لم تعد مكتملة فى تلك الفترة ، وسواء أكانت هذه الشروط مكتملة أو غير مكتملة ؛ ففى رأيى أن المسلمين عامة لم يحلوا مشكلة الحكم حلا سليما يتفق مع معانى القرآن الكريم وماجرى عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى قيادة الأمة من الشورى الكاملة والمساواة التامة بين المسلمين ، مع الإفادة كذلك من تجارب الأمم السابقة وهو ما قاله به أ . د . حسين مؤنس فى تاريخه الموجز عن الفكر العربى .

وفى هذا مايعنى أن الداء لايعبر عن الفترة التى عاشها العبدرى فقط والتى أبدى فيها رؤيته السياسية ؛ بقدر مايعبر عن مشكلة حقيقية عاشها العالم الإسلامى شرقه وغربه ، وهى مشكلة نظام الحكم ، وأن مفكرى الإسلام لم يعالجوا المسائل التى تهم الناس علاجاً حقيقياً ، وفى مقدمة هذه المسائل " مشكلة الحكم (٤٤) " والنظام السياسيى أو المُلك كما يراه العبدرى فى رؤيته ..

ولعل أهم ماينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار هنا أن رؤية العبدرى السياسية لايمكن فصلها عما لحق بالعالم الإسلامى – مشرقه ومغربه – من تدهور وذبول وضعف ، وهو الأمر الذى آل فى نهاية الأمر إلى سقوط دولة المسلمين بالأندلس فى

سنة " ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م " . وعلى أيه حال يواصل العبدرى رؤيته السياسية ، مشيراً الى ظهور مجموعة من الخارجين على النظام الحاكم ، وأن هناك من كان يطلب الملك وليس أهلاً له ، وهؤلاء جميعا يذكر عنهم العبدرى بأنهم –:

"لا يأمن بهم طريق ، ولا يستنقذ بهم غريق ، ولا يذكر فيهم أصيل فى المجد

عريق " (٤٥) . وفى هذا ما يشير إلى سوء مسلك هؤلاء البغاة ، وعدم نجدة من يلجأ إليهم ، فضلا على أنهم لا ينتمون إلى بيوتات أصيلة ، ولا يسعون إلى نشر الأمن فى البلاد ، بل إن وجودهم فى حد ذاته علامة على عدم استتباب الأمن فى البلاد ومن أمثلة هؤلاء – حسبما يذكر العبدرى – " المليكشى وعبدالقوى " وتدفعه ظروف عصره السيئة إلى استذكار ما كان فى عهد يوسف بن عبدالحق المرينى ؛ سلطان الدولة المرينية ، وما نعم به عهد الرجل من شيوع الأمن والأمان فى بلاد المغرب ، فيتأسف على ما كان فى عهده قائلاً –:

"يا أسفا على يوسف " (٤٦) ويأتى هذا الأسف بعد أن أطلق لقلمه العنان فى الاستعانة بمن يغيث ، ومن يرحم ، ومن يرأف ، ومن ينقذ ، ومن يعين على أوضاع عصره المتدهورة ؟ !

وفى ختام رؤية العبدرى السياسية ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أن العبدرى الرحالة، جغرافيا، وليس مؤرخاً ، وأن معلوماته التاريخية صادقة في الأغلب الأعم، خاصة إذا ما

ارتبطت بشهادة رحالة على عصره ؛ إلا أن الرجل – فى رأيى – لم يكن متطرفاً فيما قاله ، وأن نظرة على ماجاء فى رؤيته ، لمن الممكن أن تدفع الى القول بأن ماجاء فى رؤيته يعد من قبيل الأثنوجرافيا السياسيه ، أو السوسيوجرافيا السياسية ، إن صح القول ، حيث قام بوصف سياسى للمجتمع الذى عاش فيه بما فيه من أجناس وطبائع .

الجوانب الاقتصادية فى رحلة العبدرى

لعل المتتبع لآراء العبدرى الاقتصادى ، أو ذات الصلة بالجوانب الاقتصادية يجد أنها قليلة ، ورغم أنه يخرج عن القصد إحصاء هذه الآراء ، إلا أن قليلا منها جدير بالذكر هنا ، ومنها ما جاء فى حديثه من تعامل أهل برقة مع بعضهم البعض قائلاً عنهم –:

"والشأن عندهم فى التبايع المعاوضة بالمبيعات ، والتبادل فى المثمونات ، لايجرى بينهم دينار ولا درهم ، وباب التعامل بهما عندهم مبهم (47) "

وفى هذا مايشير إلى أن أهل برقة كانوا يعتمدون فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى على أسلوب المقايضة فى التعامل الاقتصادى ؛ مما يدل على أنهم – فى ذلك الوقت – كانوا متوغلين فى البداوة والتخلف فى ضوء مايعرف عن استخدام هذا النظام فى تاريخ مصر القديم .

ويشير العبدرى فى هذا الإطار أيضا إلى محاولة أحد حجاج بيت الله الحرام لشراء شئ ما من أحد أبناء برقة ، ويزيد فى هذا الشراء دينارين ، إلا أن الرجل يرفض معللاً ذلك بقوله –:

"لا أُدخِل خيمتى مالم يدخل قط خيمة أبى ولا جدى " (٤٨) والرجل من أهل برقة هنا يرفض مجرد التعامل بالدنانير لأنها لم تدخل خيمة أبيه ولا جده ، وهو اتباع لما وجد عليه أباؤه . وإن كان فى غير مصلحته ، وفى الموقف مايعبر عن ضيق أفق وقلة فهم وعقل ، وهو ما قصده العبدرى فى سرده للأحداث .

وفى موطن آخر يتحدث العبدرى عن البيع والشراء لدى أهل برقة ؛ ويذكر أن رجالهم " أى رجال أهل برقة " كانوا يستخدمون نساءهم فى البيع والشراء ، وأن مجرد

استخدام النسوة فى البيع يعد من الأمور المجهدة للحجاج إذا ما أرادوا شراء شيئاً منهن ، وربما كان ذلك لما يعرف عن بعض النسوة – وربما أكثرهن – حرصهن على الاجتهاد فى البيع والشراء ؛ بما يعود عليهن بالربح الوفير ، دون النظر لمصلحة المشترى فى حالة قيامهن بالبيع ، وهو ما انتقده العبدرى عندما ذكر فى قوله عن أهل برقة أنهم يستعملون.... " نساءهم فى البيع والشراء ، فلا يتوصل الحاج إلى شراء القوت إلا بعرض مبتذل ، وحال ممقوت (49) "

ويعاود العبدرى حديثه عن الجوانب الاقتصادية عندما يذكر ، نفطة " التى ينتقل منها إلى ما يسميه " بغابة أفريقية " ؛ ولعلها المنطقة التى تلى نفطة ، ويذكر عنها أنه يوجد بها الزيتون ، وأن هذا الزيتون مثل زيتون الشام ، بيد أن العبدرى يذكر أنه قطع المسافة فى غابة أفريقية المذكورة فى فترة ثلاثة أيام معللاً ذلك إلى فساد " البدو واستيلاء العربان عليها"(٥٠) وأن مثل هذه الجوانب السيئة كانت سبباً فى اندثار الزيت منها ، حتى صار الزيت مجلوبا من جزيرة جربة (51) .

ويحاول العبدرى هنا أن يوضح أثر الحالة الأمنية على النشاط الاقتصادي ومايترتب على افتقار الأمن من كساد فى الزراعة والصناعة ؛ إذ من المعروف أن الزيتون كمحصول تقوم عليه صناعة الزيت ، وأن الظروف الأمنية ، وفساد العربان ، وسطوة قبائل البدو ، قد أثرت سلباً على المحصول والصناعة معاً مما أدى إلى جلب الزيت من جربة .

آراء العبدرى الاجتماعية

أولاً : ثناؤه على بعض جهات المغرب العربى –:

أثنى العبدرى فى رحلته على كثير من الجهات ، أو على بعضها ، ومنها " بلاد القبلة" التى يقول عن أهلها أنهم فى " غاية من حسن الظن بأهل الدين وقوة الرجاء ، وهم أهل ذمام واحترام وحماية للجار وإيواء للغريب على ضد ماعليه أكثر أهل الغرب " (٥٢) وهو هنا يشير إلى وجود بعض صفات حميدة تتمثل فى حسن الظن بعلماء الدين ومشايخه، واحترامهم للجار ،ومساندتهم للغريب ، واحترامهم للعهد ؛ ومثل هذه الصفات لم تكن موجودة

فى كافة بقاع المغرب العربى ، مما يدل على أن المقطع الأخير من حديثة لا يخلو من ذكر السلبيات .

ومن صور ثناء العبدرى على بلاد المغرب أيضا حديثه عن أهل " بلاد القبلة " وإجماعهم على ألا يتقاتلوا داخل حدودهم إذا حدث قتال بينهم ، فيتم الاتفاق على التقاتل خارج حدوهم لخشيتهم من فساد حصونهم ، وهم يحترمون اتفاقاتهم ، وإذا ما عادوا الى حصونهم لاتجد أحداً يقتل زميلاً له ، ولو كان قاتلاً لأحد أقاربه ، ويعلق العبدرى على هذا بقوله..." هذا دأبهم لا يغدرون ولا ينقضون ، وخافوا فساد حصنهم ولم يخافوا فساد كونهم. (53)"

وفى تعليق العبدرى إشادة منه ببعض الصفات الحميدة مثل الوفاء بالعهد ، والالتزام بما تم الاتفاق عليه ، إلا أن هذا لم يمنعهم من التقاتل وسفك الدم ، وقتل ما حرم الله ، وهو ما عاباه العبدرى بقوله أنهم خافوا فساد حصونهم " ولم يخافوا فساد كونهم "

والرجل هنا موضوعى فى نقده ، يذكر الايجابيات بأمانة ولا يبالغ فى مدحها ، ولا يتطرف أيضا فى ذكره للسلبيات ؛ إلا أننى لا أوافق على وصفه لبلاد القبلة بأنها " رجال بلا دنيا " (٥٤) فكأنه هنا يمتدح مكارم أخلاقهم ويشيد برجولتهم فى مقابل بلاد المغرب كلها التى يقول عنها أن " الغرب دنيا بلا رجال " (٥٥) ، ثم أية رجولة تلك التى تبيح القتال خارج حصونهم ، وتحرمه داخل الحصون ؟ ! وهو الأمر الذى فطن اليه العبدرى فى تعليقه السابق ، فى قوله عنهم أنهم لم " يخافوا فساد كونهم . "

ومن الجهات التى أثنى عليها العبدرى فى رحلته منطقة " مسلاتة " فى ليبيا الآن ، حيث يذكر عنهم قوله – :

"وهم قوم يبرون أهل الدين ، ويكرمون الحجاج وهم على خير وصلاح (٥٦) " وهو هنا يشير إالى إكرامهم لحجاج بيت الله الحرام أثناء توجههم إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج ؛ حيث كانت تدفعهم ظروف السفر والرحلة إلى الإقامة فى بعض جهات المغرب العربى ومنها مسلاته التى يشيد بكرم أهلها وصلاح طاعتهم .

كما أثنى العبدرى أيضا على أهل " قصر الجم " ؛ وهو قصر الكاهنة الذى يبدى إعجابه ببناءه المستدير المتسع العال ، بينما يقول عن أهل تلك المنطقة ... " وأهلها ناس صالحون شملهم بركة الشيخ الصالح أبى زيد اللخمى – رحمه الله – وأولاده الآن على طريقتهم فى الدين والصلاح وإطعام الطعام ، نفعهم الله ونفع بهم. (57) "

ولعل الملاحظ هنا قلة الجهات التى أثنى عليها العبدرى إذا ما قيست بالجهات التى كشف النقاب عن سلبياتها وعيوبها ، كما أن هناك كثيراً من الأعلام الذين التقى بهم العبدرى وأثنى عليهم ، وعلى بعض الجهات التى أقاموا فيها ؛ ورغم قلة هذه البضاعة عند العبدرى – إن صح القول – فإنى رأيت إرجاء الحديث عن هذه الجوانب عند الحديث عن آرائه فى العلم والتعليم.

ثانيا : ذكره لسلبيات بعض المناطق–:

اشتملت رحلة العبدرى على بعض صور الآفات الاجتماعية فى بلاد المغرب العربى ومنها على سبيل المثال –:

بعض حوادث السطو والسرقة :– ويبدو هذا جلياً عند حديثه عن " المفازة " القريبة من منطقة تلمسان ، والتى يقول عنها أنها " من أضر بقاع الأرض على المسافر ، لأن المجاورين لهم من أوضع خلق الله ، وأشدهم إذاية ، لا يسلم منهم صالح ولا طالح ، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتفادون شره. (58) "

وما أستطيع فهمه من نص العبدرى أنه يشير إلى حوادث سلب ونهب المارة فى الطرقات ، وفرض الإتاوات على الناس المارين بتلك الطرقات سواء أكان صالحاً أو

طالحاً ؛ ولعل هذا هو ماقصده العبدرى فى قوله عن هذه العصابة ودعائه عليهم بأن يسلط الله – سبحانه وتعالى – عليهم " من الآفات ما يسحقهم جميعاً أصلاً وفرعاً ، ويقطع دابرهم إفراداً وتثنيه وجمعاً ، حتى يكونوا آية للمعتبرين ، وعبرة للناظرين ، بعزة الله وقدرته وحوله وقوته. (59) "

ولا يفوته فى العودة أن يشير إلى المفازة المذكورة ؛ ويذكر عنها أنها " موحشة لاتخلو من قطاع الطريق " . وفى هذه كله مايفسر حديث العبدرى عن عادة " الخُفارة " عند حديثه عن ذكر " تلمسان " فى العودة ، مشيراً الى وجود قافلة لم تتمكن من الخروج من المنطقة المذكورة مدة ثلاثة أشهر ، أو نحواً من ثلاثة أشهر حسبما جاء فى قوله

تحديداً (٦٠) ، إلا بعد قيامها بأداء حق أو واجب أو قل – وهو الأصح فى نظرى – إتاوة الخِفارة .

إحدى حالات البخل – :

وقد سجل العبدرى فى حديثه عن تلمسان إحدى صور البخل الشديد ؛ ومن ذلك ماذكره فى هذا الشأن أن نحواً من العشرين حاجاً قد طلبوا عشاءً من سلطان أو حاكم تلك النواحى ، فلم يجبهم إلى مطلبهم ، بل نادى فيمن يكفلهم فى عشاءهم قائلا بشأنهم ... " يا أهل الدوار ، هؤلاء ضيفانُ الله ، من يحمل منهم إلى بيته واحداً " (٦١) . والمؤسف أنه – مع بخله – لم يجد أيضا آذانا صاغية إليه ، فكأنهم يصدق عليهم القول القائل " كما تكونوا يولى عليكم " أو " الناس على دين ملوكهم . "

ولست فى حاجة إلى التأكيد بأن مثل هذه المثالب – وإن طال الحديث وكان لها

بقية – تعد أمثلة فردية لا يمكن تعميمها على كافة مجتمعات المغرب العربى ؛ إلا أن وقوعها فى أكثر من جهة قد يكون مرجحا أيضا .

بعض مساوئ نفر من القضاة –:

أشار العبدرى إلى بعض مساوئ نفر من القضاة فى بلاد المغرب العربى ؛ ومن هؤلاء القضاة القاضى العمرانى " القاضى بحضرة مراكش الذى يقول عنه أنه " منجنيق ظلم تُرمى به قواعد الدين ، ونفط فساد يضرم قلوب المهتدين " (٦٢) مشيراً إلى أن الله سبحانه وتعالى قد وفق أمير المؤمنين لإقصاءه عن فساده وظلمه هذا ، وفى هذا ما يشير إلى رضاءه ومدحه لأمير المؤمنين الذى كان معاصراً لولاية العمرانى لقضاء مراكش .

وليت الأمر اقتصر على قول العبدرى المذكور سابقاً فى ذم القاضى العمرانى ؛ بل تعداه إلى إحدى صور الفساد الحقيقية فى مجال القضاء ، قائلاً فى هذا الشأن ... أن قوماً ادُّعى عليهم القتل ، وأثبت المدعى دعواه بوثيقة " ومن المؤسف أن القاضى العمرانى قال لمن قدم البينة على هؤلاء القوم الذين ثبت عليهم القتل –:

"هؤلاء أكابر الناس وأعيانهم " . ويعلق العبدرى على هذا الموقف بأن هذه ..

"سنة إسرائيلية أحياها هذا اللعين ، لاحياه الله : ولا صفح عنه فما أعظم جرأته على الله عز وجل " .

ولعل القصد من وصف العبدرى لموقف القاضى بأنه " سنة إسرائيلية " يشير إلى موقف " أسامة بن زيد " من المرأة المخزومية التى سرقت ، ومجيئة – رضى الله عنه – إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – ليشفع لها ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم " إن بنى إسرائيل كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، لو كانت فاطمة لقطعت يدها (63) " .

والإتيان بهذا الحديث الشريف يشير إلى عدم رضاء العبدرى عن موقف القاضى العمرانى من هؤلاء القوم المُثبت عليهم جريمة القتل ؛ وفى رأيى أن موقف القاضى يعبر عن خصوصية ينبغى أن يربأ المجتمع الإسلامى بنفسه عن الوقوع فيها ، ناهيك عن القضاء – فى ديار الإسلام – الذى ينبغى أن يحكم على الشريف قبل الوضيع ، وعلى الكبير قبل الصغير ، حتى تتحقق العمومية التى قصدها الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى قوله " والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . "

ومن المآخذ التى أخذها العبدرى على القضاء أيضا ما أشار إليه فى تلمسان من قيام القاضى بتوبيخ أحد الخصمين ممن حلف زوراً ، وهو ما كان موضعا لاستغراب العبدرى ودهشته (٦٤) ؛ فيما يعنى أن العبدرى كان يتوقع من القاضى أقصى عقوبة على من حلف زوراً ، دون الاقتصار على التوبيخ ، إذ أن قول الزور وشهادة الزور من الأمور التى يعدها الإسلام من الكبائر استناداً إلى حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – عندما سُئل عن أكبر الكبائر ، وما كان منه صلى الله عليه وسلم فى جوابه وتعداده للكبائر من

خلال "الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور " ، كما أن المؤمن الحق ينبغى أن ينأى بنفسه عن الوقوع فى شهادة وقول الزور ، وهذا يتضح عندما سُئل النبى – صلى الله عليه وسلم –عن صفة المؤمن ؛ وجوابه – صلى الله عليه وسلم – نافياً صفة الكذب عن المؤمن . (٦٥) ومثل هذه الجوانب ينبغى أن يضرب القضاة على أيدى من يقع فيها بكل حسم وشدة .

هجومه على بعض الأجناس والمذاهب الدينية –:

شن العبدرى هجوماً قاسيا ونقداً لاذعاً على بعض أجناس أهل المغرب ، ومن هؤلاء أهل قابس ؛ إذ قال عنهم أنهم أصحاب لؤم... و" طبع وخيم وتضييع المصليات والمساجد ، وقلة اعتناء بكل راكع وساجد ... " (٦٦) إلى آخر هجائه الذى يغلب عليه السجع ، ولعل فى هذا ما يدعو إلى التساؤل عما إذا كان العبدرى قد دخل فى نفوس أهل قابس حتى يحكم عليهم باللؤم والخبث ؟!

والعبدرى هنا لايذكر حادثة بعينها حدثت له على أرض الواقع مع أهل قابس بما يجعل الباحث مطمئناً إلى سلامة نقده ، وهو مايعبر عن شطط فى النقد وهجاء لا سند له .

ومرة أخرى يتحدث العبدرى عن الخبث وكأنه يكشف عما فى القلوب ؛ فيقول عن أهل قريتى زوارة وزواغة أنهم من ... " ذوى الأنفس الخبيثة والقلوب الزواغة " (٦٧) . ويصف معتقدات أهليهما بأنهما أصحاب " معتقدات شنيعة " ولعل فى هذا القول ما يشير إلى أحد المذاهب الدينية التى انتشرت فى منطقة زوارة ، وهو المذهب الإباضى ؛ بيد أن العبدرى يخالفه التوفيق فى وصفه للمذهب الإباضى بالمعتقدات الشنيعة ، ولعل المرجح هو ماتشير إليه كتابات متخصصة تذكر عن المذهب الإباضى بأنه أقرب مذاهب الخوارج إلى أهل السنة ، أو هو أقرب المذاهب اعتدالاً (٦٨) ، كما أن هناك دراسات تدافع عن الإباضية وتذكر أن الفكر الإباضى لايجتمع مع فكر الخوارج إلا فى قضية الخلافة ، وأن الإباضية أبعد الناس عن الخوارج فى فهمهم للإسلام (٦٩) ؛ ولعل أهم ماينطبق عليه الوصف بالمعتقدات الشنيعة ،بل والفاسدة أيضا ، هو ماجاء بشأن هراطقة برغواطة ، واعتناق بعض

قبائل أفريقية والمغرب لمعتقداتهم الفاسدة ، ومن تلك القبائل قبيلة زواغة (٧٠) ، أو منطقة زواغة حسبما جاء وصفها فى بعض كتب الجغرافيا والبلدان . (71)

وفى هذا كلة مايعنى أن العبدرى يحالفه التوفيق فى بعض الجوانب ، ويخالفه فى جانب آخر ؛ ويكون من الأسلم حقيقة البعد عن التمذهب ، والتمسك بما قاله أهل السنة والجماعة بعيداً عن الهرطقة كماهو الحال عند البرغواطيين ، ودون الدخول فى متاهات من الجدل العقلى كما هو فى بعض جوانب المذهب الإباضى وإن كان أقرب المذاهب الى أهل السنة .

ومن الأجناس التى شن عليها العبدرى أيضا هجوماً عنيفاً هم " أهل طرابلس " حيث ينتقدهم بشدة مشيراً إلى ضيق أفقهم ، وقلة علمهم ، وعدم توقير صغيرهم لذوى الفضل بينهم ؛ وذلك على قلة ذوى الفضل منهم ، بل ويعقد العبدرى مقارنة بين فضائل أهل تونس، وفضائل أهل طرابلس مختتماً هذه الفقرة بقوله عن أهل تونس وطرابلس –:

"فسبحان من خلقهم وأهل تونس فى طرفى نقيض ، أولئك فى الأوج ، وأولاء فى الحضيض .(72) "

وقد أرجأت الحديث عن تونس وأهلها عند الحديث عن الجوانب العلمية للعبدرى كما سبق القول ، بيد أننى لا أدرى هنا إن كان العبدرى – على كثرة انتقاداته – غير بخيل بالثناء على من استحقه ، أو غير مفرط فى الهجاء أيضا على من كان أهلاً له ؟ !

والمرجح لى أن الرجل لم يكن – كما قيل عنه – معقداً ، أو مفرطاً فى الهجاء دونما سبب ، أو تطمئن نفسه إلى حياة البادية ، ولا يستريح إلى حياة المدينة ؛ وإجمالاً لم يكن مفرطاً فى نقده للأسباب السابقة ، وعلى فرض أنه كان يميل إلى حياة البادية ، وينتقد أهل المدينة ، فلم امتدح أهل تونس " المدينة " ، واختص أهل مدينة طرابلس بالهجاء ؟ !

وليس عندى من الجواب إلا مايشير إلى أن العبدرى كان محقاً فى بعض آرائه ، إن لم يكن فى كثير منها ؛ وقد يكون لوجود قبائل العربان أثره فى نقده لأهل طرابلس ، أو قد تكون الأصول الأثنوجرافية لأهل طرابلس ترجع إلى قبائل العربان وغلبة الطابع البدوى

على أهلها آنذاك ، ومثل هذا الطابع الذى يشير إلى غلبة قبائل العربان أيضاً على بعض الجهات فى " ليبيا الحالية " يبدو واضحاً فى حديث العبدرى عن منطقة سرت. (73) "

ولاننسى أنه اختص بعض جهات المغرب الأدنى بالثناء ، مما ينفى عنه صفة التطرف فى الرأى ، أو التعصب لجنس دون آخر ؛ وفى ختام هذه الجزئية لا أريد أن أكون مليكا أكثر من الملك ، وقد يتفق معى القارئ الكريم – أو يختلف – فى كثير مما أذهب إليه، بيد أن الحقيقة تبدو فى كثير من الأحيان نسبية ، خاصة إذا ما ارتبطت بما فى مكنون الكاتب أو الرحالة ، أو المؤرخ . والله وحده – سبحانه وتعالى – هو العليم فقط بذات الصدور ، وأخيراً فلا يبقى من آراء العبدرى الإجتماعية سوى حديثه عن المرأة ، وهو على الرغم من قصره ، فقد أفردت له جزئية خاصة به .

ثالثا : حديث العبدرى عن المرأة –:

لست أقصد الإحصاء فى حديث العبدرى فى كل ماذكره ، بيد أنه تجب الإشارة إلى أن العبدرى لم يتحدث عن المرأة إلا فى مواطن قليلة ؛ منها ماسبق توضيحه فى الجوانب الاقتصادية ، ومنها مايتعلق بهذه الجزئية التى يتحدث فيها عن المرأة فى منطقة " برقة " فى ليبيا الحالية ، والتى يشير فيها إلى وجود الخِرْقة على وجه المرأة ، وهو مايسمى بالبرقع ، ويذكر عن المرأة أنها – :

"تتخلل الناس مكشوفة الرأس والأطراف ، حافية القدمين ، لا تهتم بستر ماسوى وجهها ، كأن ليس لها عورة سواه "

وعند هذا الحديث يبدو العبدرى صاحب حق تماماً فيما يقول ؛ إلا أنه لا يقتصر على ذلك ، بل يضيف أن هذا البرقع يظل على وجه المرأة حتى يتسخ ، وهنا يقول العبدرى أن المرأة بعد اتساخ برقعها المذكور " تصير أوسخ من عرض اللئيم ، وأقبح من وجه الشيطان " (٧٤) وقد يكون العبدرى على حق فى نقده هذا ؛ فنظافة الإنسان شئ يحافظ به المرء على آدميته وإنسانيته ، وقد تكون الصورة المذكورة هنا تنطبق على بعض جهات المغرب العربى ، وليس برقة فقط ، وربما لو قدر للعبدرى أن يرى المرأة فى العصر

المرابطى لكان نقده أشد ضراوة مما قاله ، فهل كان سيروقه أن يرى النساء فى العصر المرابطى سافرات الوجه ، فى حين أن الرجال يتخذون اللثام ؟ !

بيد أن أهم مافى نقد العبدرى للمرأة أنه يرى أن فى جسد المرأة ماينبغى ستره دون الاقتصار فقط على الوجه والكفين ، وهو مايعنى أنه لم يكن مشتطاً فى نقده عند الحديث عن " برقع المرأة "

أراء العبدرى العلمية

احتوت رحلة العبدرى على كثير من آراء الرجل العلمية ، والتى يمكن وضعها فى نقاط محدودة على النحو التالى- :

أولا : الحالة العلمية فى بعض جهات المغرب العربى :

يأتى فى مقدمة آراء العبدرى التى تجسد الحالة العلمية فى بعض جهات المغرب العربى حديث الرجل عن " بلاد القبلة " والتى يقول عنها أنها :- " بلاد مات فيها العلم وذكره ، حتى صارت العادة فى أكثرها أنهم لا يتخذون لأولادهم مؤدباً. (75) "

والملاحظ أن العبدرى هنا يتحدث عن إحدى جهات المغرب الأقصى ؛ ومثل هذه المناطق كانت تجد صعوبة فيمن يذهب للتدريس بها ، أو بمعنى أصح فيمن يقبل بأن يقوم بمهنة التدريس فى هذه المناطق النائية ، بل كان هناك من ينفر منها ؛ وقد ظهر ذلك واضحا فى بدايات العصر المرابطى عندما طلب الأمير يحيى بن عمر اللمتونى الجدالى مع جماعة من أهل قبيلته ، طلب من الفقيه أبى عمران الفاسى ، وكان بالقيروان ، أن يرسل معه أحد تلاميذه ليفقه قومه فى الدين ليزيل عنهم جهالتهم ، ولم يرد أحد من تلاميذ الشيخ أبى عمران أن يذهب الى صحارى لمتونة لصعوبة تلك البلاد ، وجفاء طباع أهلها ، وبعدهم عن الحضارة الإسلامية ؛ فما كان من الفقيه إلا أن أشار على الأمير يحيى بالذهاب الى الفقيه (وجاج بن زلوا اللمطى) من أهل السوس الأقصى بوادى نفيس ، ليقع الاختيار فيما بعد على عبدالله بن ياسين ليصحب الأمير يحيى فى رحلته الى بلاد بصحارى المغرب الأقصى ليعلم قومه أصول الدين (٧٦) ، وهذا يعنى أن انتقادات العبدرى بهذا الشأن ليست مستبعدة ، بل إن حدوثها يعد مرجحاً ؛ إذ أن بلاد القبلة تعد من جهات المغرب الأقصى ،

ومثل هذه الجهات تبدو نائية ، ولا يوجد بها من عوامل الجذب ليذهب اليها العلماء والمؤدبون ، ومن الطبيعى أن يترك ذلك أثره على أهل تلك المنطقة فلا يسعون الى جلب المؤدبين لأولاهم فى كثير من الجهات ؛ فإذا ما أضيف إلى هذا جفاء الطباع عند أهل تلك المناطق ،وغلظة البداوة ، والبعد عن التحضر ، فإن هذا يرجح حدوث انتقادات العبدرى على أرض الواقع التاريخى ، وأن انتقادات العبدرى لم تكن من قبيل الشطط أو التطرف فى الرأى أو النقد .

بيد أن حديث العبدرى عن بعض جهات أخرى يبدو غير مبرر ، وغير منطقى ، مثل حديثة عن " بجاية " الذى يقول فيه بعد حديث تقدم ... " وقد غاض بحر العلم الذى كان به حتى عاد وشلا ، وعفا رسمه حتى صار طللا ، وبه آحاد من طلبه العلم قد اقتصروا على مطالعة الصحف والدفاتر ، وسلكوا فى ترك تصحيح الرواية طريقاً لم يرضه الأعلام الأكابر (77) " .

ولكن أى علم هذا الذى غاض بحره فى بجاية التى كانت مزدهرة فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ؛ ودليلى على ذلك ما جاء فى كتاب عنوان الدراية للغبرينى ، وما حفل به من أعلام كانوا جميعا فى بجاية (٧٨) ، وهو مايعنى أن نقد العبدرى لايمكن أن يؤخذ على عواهنة ، وأن بجاية حظيت بوجود نفر من أهل العلم ، على الأقل كانوا من البقية الباقية من أعلام " ق ٧ هـ ١٣١م " ، وممن أوردهم الغبرينى فى عنوانه ، إذا ما أخذ فى الاعتبار أن رحلة العبدرى كانت فى نهاية ق ٧ هـ . فالعلم لاينطفئ بين يوم وليلة ولا يُقبض انتزاعاً هكذا فجأة وبدون مقدمات ، بيد أن الحق يقال أن هذه الفترة شهدت – إلى حد كبير – ذبولاً للحركة العلمية فى الحضارة الإسلامية عامة .

ونفس هذا التعليق السابق على انتقادات العبدرى ينطبق على ماقاله بشأن الجزائر ، حيث يقول عنها أنهم لم " يبق بها من هو أهل العلم محسوب ، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب ، وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كربة ، أو أديب يؤنس غربة ، فكأنى أسأل عن الأبلق العقوق ، أو أحاول تحصيل بيض الأنوق " (٧٩) ؛ فليس من المعقول أن بلداً بأكملها لا يوجد بها من ينال إعجاب العبدرى ، فى حين يبدى إعجابه فى مواطن أخرى، وفى بلدان أخرى بآحاد من العلمـاء (٨٠) ممن قابلهم وحرص على التعلـم منهم

واستجازتهم (٨١) ؛ وفى هذا مايشير إلى تطرف العبدرى فى الرأى والنقد ، كما إن إشادته بآحاد العلماء أمر نسبى ، فما يعجبه هو قد لا يعجب غيره من الرحالة ، أو من العلماء وطلاب العلم ، وليس من المقبول أن يقال عن بلدة بأكملها أن فلاناً من العلماء هو العالم الوحيد بها ، فالأحادية فى العلم غير مقبولة ، والعلم – فى رأيى – أشبه ببحر يأخذ منه طلاب العلم ، كلٌ بنصيبه .

ويخفف العبدرى من حدة نقده فى حديثة عن مدينة تلمسان ، فلا يشير إلى ضعف الحالة العلمية فى البلاد كلها ، بل فى أكثرها على حد قوله ، وفى هذا يقول : " وأما العلم فقد درس رسمه فى أكثر البلاد " بيد أنه يشير إلى حضوره لأحد مجالس العلم لمدرسى اللغة والأدب ، ويذكر أنه سمع المدرس يقول " كلا للمذكر ، وكلتا للمذكرتين . (82) "

وفى هذا مايشير إلى تدنى مستوى علوم اللغة ، وإن كان هذا لايمكن تعميمه ، لكن العبدرى لايتردد فى ذكر الإيجابيات إذا ما رأى ذلك فى البلاد التى يدخلها ، وفى الأجناس التى يتعامل معها ، وفى هذا الشأن يقول عن تونس : " وما من فن من فنون العلم إلا وجدت بتونس به قائماً ، ولا مورد من موارد المعارف إلا رأيت بها حوله وارداً وحائماً " وهى شهادة منه بتفوق تونس العلمى ، وهو يبدو على حق فى هذا ؛ إذ أن تونس تلعب دوراً ثقافياً هاماً فى ماضى وحاضر الحضارة الإسلامية فى مجالات شتى ، ولعل أهم مايرجح ذلك فى الآونة المعاصرة كثير من أنشطتها الثقافية ، وملتقياتها الثقافية مع الجانب الأسبانى وهو ماوقفت عليه بنفسى فى مجال الأندلسيات ، وهو مايفوق نظيراتها من بلدان المغرب العربى .

ويقارن العبدرى بين تونس وبين طرابلس ؛ ويقول عن الأخيرة أنها كانت–:

" للجهل مأتما وما للعلم بها من عرس " غير أنه يبدى استحسانا بصورة جامع طرابلس ومدرستها فى حين يمتدح فى تونس مبانيها ومنشآتها ، وأنها فاقت غيرها من المدن . (84)

وصفوة القول ان العبدرى يصف الحالة العلمية لكثير من البلدان ، ويشير إلى ما وصل اليها حالها من التدهور والضعف ؛ فعلى سبيل المثال يذكر عن مدينة قابس بعد كم تقدم ... " وأما العلم عندهم فقد ركدت ريحه ، والجهل لديهم لا يؤسى جريحه " غير أنه

لاينكر وجود أحاد الفضلاء من الصلحاء بها ، إلا أنهم على حد قوله " كالشعرة البيضاء فى اللمة السوداء (85) "

كما أنه لا يرى فى مدينة سوسة " زعيم محبر ، ولا فارس دفتر ، قد خرس بها لسان الطلب ، وعاد لفريق الجهل على فئة العلم الغَلب " (٨٦) ويعقد العبدرى مقارنة بين ما كان عليه حال القيروان فى أعقاب نشأتها وما كان فيها من علماء وصلحاء ، وبين حالها عند زيارته لها فيذكر عنها أنهم لم ير فيها " إلا رسوماً محتها يد الزمان ، وآثاراً يقال عنها كان وكان " مشيراً الى أن الأيام " إذا أعطت أخذت " ، وأن سوق المعارف كسدت بها(٨٧). ولعل أهم مايمكن قوله على انتقادات العبدرى بشأن القيروان أنه يؤمن تماماً بأن الماضى لا يصنع مستقبلاً ، وأنه لا فائدة من قول كان وكان بمايفيد الإشادة بالماضى مادام ذلك الماضى لا يستفاد منه فى تشكيل مستقبل أفضل .

وفى ضوء انتقادات العبدرى أيضا يمكن القول أن الرجل لم يكن ليتعمد اخفاء الإيجابيات ، ولكن الواقع السئ فى بعض الأحيان كان يدفعه إلى ذكر السلبيات ،وهو مايعنى أنه كان صادقاً مع نفسه ، وأن تغير الظروف ربما كان عاملاً أساسياً فى زيادة حدة انتقاداته ، كما أنه – وفى أحيان قليلة – لم يكن ليستطيع إخفاء الايجابيات أو تجاهلها ، كما حدث فى تونس ، وإشادته بالقيروان فى أعقاب نشأتها ، كما امتدح كثيراً من الأعلام الذين التقى بهم ، وهو ماسوف يُرى فى الجزئية التالية .

ثانيا : حديث العبدرى عن العلماء ممن التقى بهم- :

ذكره للإيجابيات- :

امتدح العبدرى بعضاً من أهل العلم ممن قابلهم والتقى بهم فى رحلته ؛ ومن هؤلاء الذين التقى بهم فى تونس " الشيخ الفقيه أبى محمد بن هارون القرطبى " والذى يقول عنه أنه " شيخ وطئ الأكناف ، لين الجانب لقاصديه ، له رواية عالية لكبر سنه " مشيراً إلى إجازته له ولابنه محمد (٨٨) ، وفى تونس يلتقى أيضا بالشيخ أبى جعفر اللبلى الذى يقول عنه " وهو شيخ مسن قوى الرجاء ، حسن الظن بأهل الدين ، سريع العبرة " مشيراً الى أنه قرأ عليه كثيراً من الكتب والمؤلفات العلمية (٨٩) ، كما يقول فى أبى عبدالله النفزى بأنه لقيه

" خبراً فاضلاً ذا مروءة وأخلاق جميلة وله عناية بالتاريخ وحظ من الأدب ومشاركة فى غير فن. (90) " ...

وفى العودة من رحلته أيضا يذكر أنه التقى بابن الغماز التونسى الذى يقول عنه أنه لقى " عالما يأخذ بالأسماع والأبصار ، وفاضلاً خلت من مثله القرى والأمصار ... " (٩١) . ولست أقصد الاحصاء فيمن التقى بهم فى تونس أو فى غيرها ؛ إلا أن الرجل كان يمتدح كثيراً من الأعلام ممن التقى بهم .

ذكره للسلبيات- :

يذكر العبدرى أنه حضر مجلساً للتدريس فى طرابلس للشيخ أبى محمد عبدالله بن عبدالسِّيد ؛ ويصف العبدرى حال الرجل بقوله أنه :- " ضيق الخلق ، لين النظر ، وفى لسانه حُبْسةً لايكاد يفهم معها. (92) "

ويدلل العبدرى على ضعف مكانة الرجل فى التفسير ، وأنه ما استفاد منه فى العلم سوى ما قاله " إذ نودى للصلاة أدبر الشيطان (93) " ...

وفى العودة أيضا يذكر العبدرى أنه حضر مجلس تدريس الفقه بطرابلس ، وكان الفقيه يعرف بابن عبيد ، ويقول عنه العبدرى .. " فحضرت مجلسه ، فرأيته قليل التوقير لمجالس العلم ، فخرجت ولم أكلِّمه (94) "

ويشير العبدرى هنا إلى آداب مجالس العلم ، وماينبغى الالتزام به فى مجلس العلم، ولا شك أن أدب العالم يقتضى منه الالتزام بتلك الآداب قبل أن يلتزم بها المتعلم ، أو يُطالب بها.

وعند وصوله إلى بجاية فى العودة يذكر أنه أدرك بها أبا الحسين الرُّنْدى ؛ ويذكر أنه كلمه فى الرواية عنه ، فى حين رآه لا يشتهى الكلام فى ذلك ، وهنا يقول العبدرى

"فآثرت التخفيف عليه وألا أعنته فى كثرة الكلام والمراجعة مع قلة روايته " (٩٥) . وهو هنا يشير إلى قلة علم الرجل فى الرواية ؛ لكنه يتعامل معه بأدب جم ، ولا يكلفه ما لا يطيق ، ملتزماً بالآداب التى ينبغى أن يتعامل بها طلاب العلم مع أهل العلم وشيوخه .

ومن هنا فلا يمكن أن يتصف من يُقدم على مسلك مثل هذا بالفظاظة ؛ والغلظة ، وعدم التحضر والتمدين وهى صفات اتهم بها العبدرى انطلاقا من أنه يألف حياة البادية ، ولا تستريح نفسه لحياة المدينة .

كما انتقد العبدرى أحد شيوخ العلم بفاس ، وهو ممن لايذكر لا اسمه ؛ بل يشير إلى أنه حضر مجلسه فى جامعها ، وأنه كان يعول عليه فى المسائل والفقه ، وأن الرجل أتى بأشياء فاسدة عندما كان يُقرأ عليه فى باب المرابحة (٩٦) . ولست فقيها لكى أحكم على صحة رأى العبدرى فى الرجل أو فساده ، بيد أن العبدرى – وهو صاحب النشأة الدينية والثقافة العامة – يشير إلى فساد رأى الرجل فى النواحى الفقهية ، ويصف حديثه بالهراء والقبائح .

بيد أن المتأمل لحديث العبدرى عمن قابلهم من الأعلام يدرك أنه امتدح كثيراً منهم؛ وقد اختص تونس بأكثر هؤلاء الذين مدحهم ، كما أنه لم يفته ذكر بعض السلبيات ، والملاحظ أن بعضاً من هؤلاء الأعلام كانوا من ذوى أصول أندلسية ، أقاموا فى المغرب ، أو فى تونس وغيرها من بلدان المغرب العربى ؛ مما يدل على وجود علاقات ثقافية متبادلة بين البلدين ، صاحبها استقرار بعض العلماء من البلدين لدى الآخر .

ثالثا : إشادة العبدرى بفصاحة عرب أهل برقة– :

لعل من أهم الآراء العلمية للعبدرى حديثه عن عرب أهل برقة وإشادته بفصاحتهم ، وهو مايعد وصف وإشادة فى آن واحد لجنس واحد ؛ رغم أن العبدرى يميل فى مواطن كثيرة إلى ذكر السلبيات ، إلا أنه أمام فصاحة عرب أهل برقة لم يملك سوى مدحهم والإشادة بفصاحتهم قائلا – :

"وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناه " بل ويعقد مقارنة بين عرب برقة ، وبين عرب الحجاز ، ومابهما من فصاحة ؛ مشيراً الى أن فصاحة عرب برقة تفوق فصاحة عرب الحجاز معللاً ذلك بأن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم ، ولم يختلط كلامهم بغيره عكس عرب الحجاز ، وفى هذا مايعنى أن عرب برقة ظلوا على بداوتهم وعزلتهم ، على

عكس عرب الحجاز الذين مالوا إلى الاختلاط بأجناس أخرى مما أدى الى فقدهم شيئاً من فصاحتهم (97) .

والذى يراه العبدرى هنا مزية قد تصبح بمضى الوقت عيباً ، خاصة إذا ما ظل جنس معين على بداوته وانعزل عن غيره من أجناس ، وفقد خاصية التأثير والتأثير ، وهنا قد يحتفظ بفصاحته ، إلا أنه حتما سيصبح متخلفا .

وعلى أية حال مايعنينى هنا أن أعيش بوجدانى مع انتقادات العبدرى ، وفى الزمن الذى تحدث فيه ؛ وهنا يزيد العبدرى فى حديثه عن فصاحة " عرب برقة " ويذكر أمثلة من فصاحتهم ، منها ما رآه بنفسه عن أعرابى سألته امرأته طعاماً معه ، فقال لها " والله ماتذوقينه " فأتى بضمير المخاطب على وجهه ، وأثبت النون ، وسكّن الهاء (٩٨) ؛ وفى مثال آخر يدلل على فصاحة عرب برقة ، سأل العبدرى رجلاً من عرب برقة عن الطريق ، فقال له :- " إذا ظهرتهم من الغابة فخذوا صوب كذا " يعنى بكلمة إذا ظهرتهم أى إذا خرجتم (99) .

ولعل أهم مايبرر مدح العبدرى لعرب برقة فى هذه الناحية هو عدم اختلاطهم بأجناس أخرى ، وأن مثل هذا الاختلاط كان سيؤدى إلى فساد لغتهم ، وهو ما دفع به الى الإشادة بهم ومدحهم .

حديث العبدرى عن التعليم والجوانب المرتبطة به

أولا : حديثه عن المرحلة الأولية من التعليم – :

تقع هذه المرحلة فى الفترة العمرية فيما بين الخامسة والسابعة (١٠٠) ؛ وفى هذا الشأن يذكر العبدرى قصة دخوله لصلاة الظهر فى مسجد بموضع بلدة أنسا من أقليم حاحا، ويذكر العبدرى فى هذا الشأن قوله – :

"وفى أول سفرنا دخلنا مسجداً لصلاة الظهر ، فوجدنا به ألواح صبيان المكتب ، فنظرنا فيها تبركاً بها، فوجدنا فى أول لوح منها" ومن يتوكل على الله فهو حسبه " ويمضى

العبدرى فى وصف الحادث مشيراً إلى أن الواح الصبيان كان مكتوباً عليها كثير من الآيات القرآنية التى كُتبت على سبيل التبرك (101) .

ولعل مايذكره العبدرى مايشير إلى أن التعليم فى بلاد المغرب الأقصى كان مسجدياً فى مرحلته الأولى ، وإن كان هذا لايمنع من وجود الكُتّاب ومؤسسات تعليمية أخرى ، بل وربما كان الكُتّاب – حسب رواية العبدرى – ملحقاً بالمسجد ، وعند الصلاة وإقامتها يتجه الصبية مع الشيخ لأداء الصلاة ، كما تفيد رواية العبدرى أيضا أن الصبية كانوا يستخدمون الألواح الخاصة بهم فى التعليم.

ويرتبط حديثه عن المرحلة الأولية من التعليم بذكر شئ من سلوك نفر من المؤدبين .

وهو " أبو العباس البطرنى " الذى التقى به فى تونس أثناء العودة ، والذى قال عنه " وهو مؤدب فى بعض أرياض تونس ، ضرير البصر ، ديّن صالح ، معتن بالعلم وروايته ، مواظب على أفعال الخير ... (١٠٢) وفى هذا مايشير الى سلوك الرجل ، ومن المرجح أنه مؤدب للصبية فى تعليمهم الأولى ، وأنه كان يحسن إلى تلاميذه وصبيانه

ثانيا : حديثه عن الكتب والمصاحف المحبسة ، وعن الخِرْقَة فى التعليم الصوفى –:

يذكر العبدرى حديثاً مطولاً عن الكتب عند دخوله مسجد القيروان ؛ حيث يذكر فى هذا الشأن قوله ... " ودخلنا به بيت الكتب ، فأخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقى ، ومنها ماكتب كله بالذهب ، ومنها كتب محبسة قديمة التاريخ منذ عهد سحنون وقبله ، منها: موطأ ابن القاسم وغيره (103) " ...

ويمضى العبدرى فى روايته مشيراً إلى أنه عثر على المصحف الذى بعثه سيدنا عثمان بن عفان – رضى الله عنه – الى أهل المغرب ؛ وأنه بخط عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، مختتما حديثه هذا بقوله .. " والله أعلم . (104) "

ولا يفوت العبدرى فى حديثه عن التعليم أن يذكر شيئا يعد من تقاليد التعليم عند الصوفية وهو " الخِرْقَة " ويبدو هذا واضحا عند العودة من رحلته ؛ وفى ظل إقامته بتونس ،

حيث يشير إلى لقائه بأبى محمد الخلاصى الأندلسى الذى جالسه كثيراً مدة إقامته بتونس ، وأنه أخذ يقتبس من علمه ، ويتبرك بصالح دعائه .. ثم يقول عنه –:

"ولبست منه الخرقة المباركة ، خرقة المتصوفة رزقنا الله بركتهم " (١٠٥) مشيراً إلى أن الشيخ . الخلاصى " قد لبس هذه الخرقة من إمام الحرمين الشيخ ابن مُسدى المهلبى، وأن للأخير (الشيخ ابن مُسدى رحمه الله) فى هذا الشأن " شأن الخرقة الصوفية " :–

"جزء مجموع ذكر فيه من كساه الخِرْقَة من الشيوخ ، واتصال السند فيها إلى السلف الصالح رضى الله عنهم " (١٠٦) ؛ وقد ذكر العبدرى أن الشيخ الخلاصى قرأ هذا المجموع على يد الشيخ ابن مسدى ، وأن العبدرى نفسه قرأ هذا المجموع على يد الشيخ الخلاصى (107)

ولعلم أهم ما يلاحظ على حديث العبدرى عن التعليم أنه يميل الى الجانب الوصفى، سواء أكان وصفا خاصا بالمجتمع ، أو بمن يقابلهم فى هذا المجتمع من شخصيات ؛ بيد أنه لايدلى برأيه – فى مجال التعليم – إلا فى مواطن قليلة ، ولا يميل الى ذكر السلبيات الخاصة كماهو ديدنه فى أحاديثه السابقة ؛ وإن كان حديثه عن الجوانب العلمية جزءا لايتجزأ من التعليم والحركة الثقافية ، وقد يكون فى وصفه فقط – دونما ذكر للسلبيات – مايعبر عن وجهة نظره فيما يكتب بما يشير الى موافقته لبعض الجوانب التى يراها إيجابية مثل تعليم الصبية ، ومسألة الخرقة عند الصوفية ، والكتب والصاحف المحبسة وغيرها .

ومن جانبى فلا أرى فيما قاله العبدرى عن التعليم خاصة مايعبر عن الشطط أو التطرف فى الرأى ؛ وفضلا على ذلك فقد ذكر العبدرى فى رحلته نماذج لكثير من الإجازات العلمية ، والإجازات العامة التى حرص على نيلها هو بنفسه من بعض العلماء الذين التقى بهم ، وخاصة فى تونس .(108)

وأخيراً، قد يتفق القارئ الكريم معى أو يختلف ، وأترك له حرية الحكم على خلاصة الوصف الأثنوجرافى ، والسوسيوجرافى من أحاديث العبدرى فى رحلته لبلاد المغرب العربى . مع مراعاة توجيه أنظار الباحثين لأهمية كتب الرحلات فى مجال البحوث التاريخية والحضارية ، وكذا الانتصار للعبدرى ورحلته ، وإسهاماته الثقافية من خلال رحلته ، والدفاع عما لصق به خلال التحليل العلمي الموضوعي .

خاتمـــــة

لعل أهم مايمكن أن يصل إليه البحث من نتائج هو أهمية هذا الوصف الأثنوجرافى والسوسيوجرافى الذى جاء به العبدرى فى رحلته من خلال ذكره للعديد من الجوانب التفصيلية التى تهم المجتمع المغربى على النحو السابق ذكره فى متن البحث . وقد تعاملت مع وصف العبدرى للنواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية من خلال بيان مدى موضوعيته أو تطرفه فى نقده أو رأيه ؛ وقد استدعى هذا من الباحث التدخل فى كثير من مرويات العبدرى ، إن لم يكن فى جميعها ، سواء أكان هذا بالتحليل أو التعليل ، وأحيانا بموافقة صاحب الرحلة على مايذهب إليه .

والحق أقول أن الرجل فى بعض المواطن لم يجد مناصاً من ذكره للإيجابيات إذا رأى ما يستدعى ذلك ؛ وفى مواطن كثيرة يسعى إلى ذكر سلبيات المجتمع المغربى معلناً ذلك صراحة وبشدة ، ولا يستطيع المرء أن يسلب صاحب الرحلة حاسته التاريخية ، رغم أنه ليس مؤرخاً ، إلا أنه كانت له رؤى سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية أوضحتها فى متن البحث .

وعلى سبيل المثال وليس الحصر ؛ فهو يستنكر ماوصل إليه حال النظام السياسى فى بلاد المغرب فى أعقاب دولة الموحدين الكبرى ،ويهاجم بعض المنتزين أو المنقلبين على الحكم ؛ ممن ليس لهم فى العراقة أصل أو نسب ، ويترحم على ماكان من عهد السلطان يوسف بن عبدالحق المرينى من أمن واستقرار ، من وجهة نظره .

كما يهاجم التقاتل والعصبية وحمية الجاهلية ، والوقوف عند طور البداوة ؛ ويعيب على قبائل البدو والعربان ترويع الآمنين وإرهابهم ، وقطع الطرق ، وسلب ونهب المارة ، ويكشف عن بعض مساوئ القضاة ، ويستنكر البخل بشدة ، ويهاجم بعض المذاهب الخارجة عن السنة والجماعة ، سواء أكان المذهب الإباضى ، أو ملة البرغواطيين الفاسدة؛ وفى نفس الوقت أيضا يمتدح الوفاء بالعهد ، وحسن معاملة الحجيج وإكرامهم ، ويتبرك بالصبغة الدينية لتعليم الصبية فى المساجد ، ويشيد بفصاحة عرب أهل برقة ، ويثنى على كثير من الأعلام

ممن التقى بهم فى بعض مدن المغرب وخاصة مدينة تونس ؛ هذا فضلاً على آرائه فى المرأة وفى التعليم وغير ذلك مما أوردته فى البحث.

وآمل فى ختام بحثى هذا أن أكون قد قدمت خلاصة للوصف الأثنوجرافى والسوسيوجرافى فى أحاديث العبدرى من خلال رحلته؛ مشيراً الى أهمية توجيه أنظار الباحثين إلى التعامل مع كتب الجغرافيا والرحلات من زوايا مختلفة، بما يؤدى إلى ثراء حركة البحث العلمى ، وتحقيق النفع لمجتمعاتنا ، وهو جل أهداف الدراسة التاريخية ...

الحواشى والتعليقات

(1) ابن زاكور الفاسى : محمد ت " ١١٢٠ هـ /١٦٩٩ م " نشر أزاهر البستان فيمن أجازنى بالجزائر وتطوان ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٦٧ ص ٢ .

(2) انظر . سيده كاشف : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، ط ١ ، مكتبة الخانجى ١٩٦٧ . ص ٧٠

(3) انظر .سيد عبدالعزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٧ ص ٢١١ .

(4) انظر. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ط ٢ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ١٩٨٦ . ص ٢ ، ٣ .

(5) انظر . حبيبة البورقادية : ملامح الشعوب فى أدب الرحلات ، مجلة المناهل ، عدد ٣ ، سنة ٢ ، يونية ١٩٧٥ ص ٢١٤ .

(6) انظر . سالم : المرجع السابق ، ص ٢١١ ، ٢١٢

(7) خصص المقرى الباب الخامس " ضمن المجلد الثانى " للحديث عمن رحل من الأندلسيين الى المشرق ، وامتد حديثه هذا ليشمل المجلد الثالث أيضا ، وفى المجلد الرابع ذكر فى الباب السادس بعض الوافدين على الأندلس من المشرق .

-انظر . المقرى : أحمد بن محمد التلمسانى ت " ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، مج ٢ ، ٣ ، ٤ / جزء ٢ ، ٣ ، ٤ ، تحقيق : يوسف البقاعى ، ط ١ دار الفكر ١٩٨٦ . ص ٢١٨ – ٤٢٥ ، ص ٣ – ٤٥١ ، ص ٣-١٤٥ .

(8) انظر . كاشف : المرجع السابق ، ص ٧١ .

(9) انظر . البورقادية : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(10) انظر . البورقادية : نفس المرجع ص ٢١١

(11) لعل من أهم المقالات التى تكشف عن أهمية كتب الرحلات ، وأهمية الرحلة عامة ما كتبه استاذى العالم الجليل أ . د قاسم عبده قاسم فى مجلة العربى الكويتية ، والذى أشار فيه الى أن الرحلة كانت بمثابة الأم لعلوم إنسانية واجتماعية عدة نشأت فى رحم =

=الرحلة ، مثل: الجغرافيا ، والاثنوجرافيا والانثربولوجيا ، وعلم السكان ، والتاريخ الاجتماعى ، وأن الرحلة بدأت مع تاريخ الإنسان نفسه ، وأنها وسيلة ناجحة للمعرفة ، فضلاً على ذكره لدوافع الرحلة ، ودورها الفعال فى الحضارة الإسلامية . انظر . قاسم عبده قاسم : الذهب والعاصفة (ضمن كتاب الغرب بعيون عربية) ج١ ، مجلة العربى ، ط ١ الكويت ٢٠٠٥ ص ٩٤-١٠١ .

(12) انظر . مقدمة كتاب : رحلة العبدرى ، تحقيق وتقديم : على إبراهيم كردى ، ط ١ دمشق ١٩٩٩ . ص ٧ ؛ وقد قام د . كرى بما يشبه الإحصاء لكثير من المصادر والمراجع التى ترجمت للعبدرى ، انظر . حاشـية رقم (١) ، مقدمة تحقيق رحلة العبدرى ، ص ٧ .

(13) العبدرى : أبو عبدالله محمد . ت بعد سنة " ٧٠٠ هـ /١٣٠٠ م " رحلة العبدرى ، تحقيق وتقديم : على إبراهيم كردى ، ط ١ دار سـعد الدين ، دمشـق ١٤١٩ هـ /١٩٩٩ . ص ٦٤ .

(14) انظر . مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٥١٨ ، ٥١٩ ؛ وبلنسية مدينة بشرق الأندلس، وحاحة أقليم يحده من الغرب والشمال المحيط الأطلسى ، ومن الجنوب جبال أطلس ، ومن الشرق نهر أسيف نوال ، ويشتمل على مدن كثيرة انظر فى التعريف بهما . الحميرى : أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم ت " ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م " كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، ط ٢ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠. ص ٩٧-١٠١ ؛ ليون الإفريقى : الحسن بن محمد الوزان الفاسى ، توفى بعد عام " ٩٥٧ هـ /١٥٥٠ م " وصف إفريقيا ، ج ١ ، ترجمة عن الفرنسية : محمد حجى ومحمد الأخضر ، ط ٢ دار الغرب الإسلامى ١٩٨٣ . ص ٩٥ ، ٩٦.

(15) انظر . مؤنس : المرجع السابق ، ص ٥١٩ .

(16) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٤٠ ، ٣٩ ؛ وتلمسان مدينة عظيمة ، تعد قاعدة المغرب الأوسط ، وهى أول بلاد المغرب . انظر عنها : الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(17) انظر . محمد بن تاويت : الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ، ج ٢ ، ط ١ دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٨٣ . ص ٣٩٢ .

(18) العبدرى : رحلة العبدرى ص ٣٩ ؛ وابن المنير هو على بن محمد بن منصور بن المنير ، يلقب بزين الدين ، وهو أخو القاضى ناصر الدين بن المنير ، ولى القضاء بعد أخيه بالأسكندرية . انظر عنه . ابن فرحون المالكى : برهان الدين إبراهيم بن على ت " ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م " الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، مج ٢ ، تحقيق : محمد الأحمدى أبو النور ، دار التراث ، القاهرة ص ١٢٣ ترجمة رقم ٣٣ .

(19) انظر . العبدرى : المصدر السابق ، الرحلة ، ص ١٦٤ ؛ ويعرف العبدرى بالدباغ (الشيخ أبو زيد عبدالرحمن بن محمد) فى رحلته ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ ؛ وهو صاحب معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان .

(20) العبدرى : نفس المصدر ، ص ١٨٧ ؛ وانظر حاشية رقم (١) من نفس الصفحة للترجمة للشيخ القاضى أبى عبدالله محمد بن على بن يحيى ، قاضى الجماعة بمراكش .

(21) يمكن للقارئ الكريم الرجوع فى هذا الشأن إلى نماذج من أشعار العبدرى ، وثقافته الأدبية والدينية فى ثنايا صفحات الرحلة ، وهو ما سوف يُلاحظ فى متن البحث ، وقد أشار إلى هذه الثقافة المقتربة من الموسوعية الأستاذ محمد بن تاويت ، وأشاد بها . انظر . محمد بن تاويت : الوافى بالأدب ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ –٤٠٠ .

(22) انظر . بن تاويت : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣

(23) انظر . بن تاويت : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٩٣

(24) بنومرين ، هم فخد من زناتة ، من أشرافهم ، وقد قيل أنهم شرفاء ، ورفع بعض أهل التاريخ نسبهم إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد تشعبت قبائل زناتة ، ومنها بنو مرين ، وبنو عبدالواد ، وكان أول أمير لبنى مرين هو الأمير عبدالحق بن محيو ، وهو الذى ينسب إلى جده مرين ، وهو أول من دخل المغرب سنة " ٦١٠ هـ /١٢١٣م " من جهة جرسيف ، ثم تعاقب الأمراء من بنى مرين حتى مجئ أمير المسلمين يعقوب بن عبدالحق الذى بويع سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨م " ، وتوفى بالجزيرة الخضراء بالأندلس سنة " ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م " أثناء قيامه بالجهاد فى =

=الأندلس ، وكانت مبايعة أمير المسلمين يعقوب بن عبدالحق بمدينة فاس سنة 656 "هـ /١٢٥٨ م " كما سبق القول ، فى أعقاب وفاة الأمير أبى بكر بن عبدالحق ، وقد وضع الأمير عبدالحق المرينى أساس الدولة المرينية ، ثم نهض بها أبو يوسف يعقوب إلى أوج بعيد كما قال د . مؤنس . انظر. فى التعريف ببنى مرين بشكل موجز. ابن الأحمر : إسماعيل بن يوسف ت بفاس سنة " ٨٠٧ هـ /١٤٠٤ م " روضة النسرين فى دولة بنى مرين ، تحقيق : عبدالوهاب بن منصور ، ط ٢ المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٩١ . ص ١٧ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٧؛ ابن أبى زرع : أبو الحسن على بن عبدالله ت " ٧٢٦ هـ /١٣٢٥م " .الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ١٩٧٢ . ص ١٢ ، ١٤ ، ٨٤ ، ٨٥ ؛ حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، مج ٢ / ج٣ ، ط ١ العصر الحديث للنشر ، بيروت ١٩٩٢ . ص ٧- ٣١ .

(25) يخصص ابن أبى دنيار فصلاً عن بداية دولة بنى حفص مشيراً إلى أن أول من تملك منهم " الشيخ أبى محمد عبدالواحد ... بن أبى حفص ، مشيراً الى نسبهم الى " عمر بن الخطاب رضى الله عنه " ومستبعدا إياه ، ثم يذكر أنهم من قبيلة هنتانة من قبائل المصامدة القائمين بدعوة محمد بن تومرت مهدى الموحدين ؛ وأبو حفص . هو أحد العشرة الذين بايعوا ابن تومرت ، وأول من تولى أمر تونس نيابة عن الموحدين سنة 603 "هـ /١٢٠٦م " ، ومن هنا انتقل ملك أفريقية – فى أعقاب سقوط الموحدين – إلى بنى حفص . انظر . ابن أبى دينار : محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى ت بعد سنة " ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م " المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ط ٣ دار المسيرة – مؤسسة سعيدان ١٩٨٣ . ص ١٥١ – ٢٠١ ، وكانت نهاية ملك بنى حفص سنة 981 "هـ /١٥٧٣م " ، حسبما جاء فى آخر صفحة من الفصل المخصص عن الحفصيين لابن أبى دنيار . وانظر عن نشأة الدولة الحفصية أيضا . مؤنس : تاريخ المغرب ، مج ٢ ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ – ٢٨٤ ؛ محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية ، تاريخها السياسى ودورها فى المغرب الإسلامى ، دار الغرب الإسلامى= = ١٩٨٦ م

ص ٨٥ – ١٦٩ وهو الفصل الثانى من كتابه والذى يحمل عنوان ظهور بنى حفص وتأسيس الدولة الحفصية.

(26) سبق التعريف بأن بنى عبدالواد هم فخد من زناتة ، مثلهم مثل بنى مرين ، وكان ابتداء أمرهم بتلمسان قاعدة المغرب الأوسط – كما سبق التعريف بها – على يد جدهم يغمور ، ويأتى ذكره فى مصادر أخرى باسم يغمراسن " وهو أبو يحيى يغمراس بن زيان " الذى يمثل بداية أمر بنى عبدالواد أو بنى زيان . انظر عنهم : ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت " ٨٠٨ هـ /١٤٠٥ م " كتاب العبر ... مج ٦ ، ط ١ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢ . ص ٣٤٣ – ٣٤٥ ؛ ابن الاحمر : روضة النسرين ، ص ٥٤– ٥٥ . ويمكن الرجوع بشأنهم أيضا إلى . مؤنس : تاريخ المغرب ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ١١٣–١٤٩ ؛ وهناك الكثير من المصادر التاريخية والمراجع التى تتحدث عنهم ، ويمكن للقارئ الرجوع اليها إذ لا حاجة للبحث فى الإسهاب فى هذه النواحى ، ولعل من أهم المصادر التى تؤرخ لبنى عبدالواد ماجاء فى كتاب " بغية الرواد فى تاريخ بنى عبدالواد " لصاحبه يحيى بن خلدون.

(27) لمزيد من التفاصيل الموجزة والدقيقة عن الحالة السياسية للمغرب العربى فى أعقاب سقوط الموحدين يمكن الرجوع إلى . طاهر راغب : التطور السياسى للمغرب من الفتح الإسلامى إلى آخر القرن العاشـر الهجرى ، ط ٢ القاهـرة ١٩٩٤ .
ص ٢٥٩ – ٢٧٨ وهو الفصل الرابع بعنوان " الدول القائمة على أنقاض الموحدين"

(28يمكن الرجوع فى هذا الشأن بإيجاز إلى . طاهر راغب : المرجع السـابق ،
ص ٢٥٩ – ٢٧٨ للدلالة على مدى الصراع بين القوى الثلاث فى المغرب العربى .

(29) أشار المقرى إلى انتصار ملوك بنى الأحمر بمساعدة ملوك فاس من بنى مرين ، وكانت هناك قوة دائمة من الجند المرينيين على أرض غرناطة ، للاشتراك فى أعمال الجهاد ، وهولاء الجند تسموا بالغزاة ، وتسمت رياستهم بمشيخة الغزاة ؛ وموقعه العقاب هى تلك الموقعة التى حدثت سنة " ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م " بين الموحدين ونصارى أسبانيا ، وهى أشهر من أن يُعرف بها فى التاريخ الأندلسى ، وقد هُزم فيها الموحدون هزيمة ساحقة . انظر . المقرى : نفع الطيب ، مج ٦ ، ص ٣٠٥ ؛ =

=حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ط ٢ دار الرشاد ١٩٩٧ ص ٤٥١؛ رضوان البارودى : مشيخة الغزاة فى الأندلس . ضمن ندوة الأندلس : الدرس والتاريخ ، الأسكندرية ١٣- ١٥ /١٩٩٤/٤ . ص ١ ، ٣ (مجموعة أبحاث مفككة قبل تجميعها فى مجلد خاص بها)

(30) انظر . مقدمة تحقيق الرحلة ، ص ١٠ .

(31) انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٣٩١ ، ١٩٨ .

(32) انظر . مقدمة تحقيق الرحلة ، ص ١٠ .

(33) القرآن الكريم ، سورة غافر ، آيه رقم ٢١ .

(34) القرآن الكريم ، سورة النحل ، من الآية رقم ٣٦ .

(35) القرآن الكريم ، سورة الروم ، آية رقم ٤٢

(36) انظر . محمد بن تاويت : الوافى بالأدب ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ .

(37) انظر . مقدمة تحقيق الرحلة ، ص ١٨ .

(38) انظر . رشدى فكار : الإثنوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف فى مدخلهما برحالة الإسلام ، ط ١ دار الآفاق الجديدة ١٩٨٨ . ص ٢١ – ٢٩ ؛ وقد سبق الإشارة إلى ماذكره أستاذى الجليل الفاضل أ . د . قاسم عبده قاسم أن الرحلة تعتبر مصدراً أوليا ، أو مادة خام للدراسات التى قامت عليها علوم التاريخ ، والإثنوجرافيا ... وغيرهما . انظر . قاسم عبده قاسم: الذهب والعاصفة ، ص ٩٦ ؛ والإثنواجرافيا ورد اسمها هكذا ضمن موسوعة المفاهيم والمصطلحات Ethnography وتعنى القيام بالملاحظة والرصد الدقيق لأحوال مجموعة اجتماعية معينة ، فى محاولة لفهم ثقافة هذه المجموعة ، ومعرفة جوانب الحياة اليومية للجماعة البشرية ، والقوانين التى تحكم سلوكها ؛ وكلمة Graphالمضافة الى المصطلحين فإنها تعنى عرض بيانات من خلال صورة مرئية ، وإذا ماسبقها كلمة Socio فإنها تعنى وصف للمجتمع فى المصطلح الثانى . ويمكن الرجوع بشأن المصطلحين إلى : – أندرو إدجار وبيترسيدجويك : موسوعة النظرية الثقافية " المفاهيم والمصطلحات الأساسية " ترجمة د . هناء الجوهرى ، مراجعة وتقديم وتعليق : محمد الجوهرى ، ط٢ المركز= = القومى للترجمة ، القاهرة ٢٠١٤ ص ٣٣ ؛

محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ١٩٩٨ . ص ١١٥ بتصرف فى كلا المصطلحين عامة ، والثانى خاصة ؛ وللأمانة العلمية ، فقد أورد أ . د . فكار المصطلحين على هذا النحو :- " الإثنوغرافيا والسوسيوغرافيا " وقد رأيت قلب الغين الى جيم أو G استناداً الى تعريف الموسوعات الحديثة للمصطلحين .

(39) جاء عن العبدرى أن سبب سخط الرجل أنه بربرى الأصل ، من سكان الجبال ، لم يألف الناس ولا العيش معهم ، أو الذهاب إليهم ، وأنه الف العيش فى الجو الطلق الصاحى ، بعيداً عن زحمة الناس وضجيج المدن ، وأنه يعاوده الانقباض ويسيطر عليه شعور بالكآبة عند دخول المدن ، ولا يعاوده التحسن إلا فى الجو الذى ألفه ، ويزيد فى اضطرابه أنه كان يلجأ فى رحلته للمبيت فى بيوت الطلاب أو الفنادق ، فكان يشعر بالمهانة والضياع ، فتمتلئ نفسه بمرارة يصبها على الورق ، وهو مايعنى أن العبدرى كان رجلا متشائماً ، سئ الظن فى الدنيا والناس ، وكان من أولئك الناس الذين لايدرون مايريدون ، فهو دائما فى سأم وقلق وضيق . انظر . مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٥٢٠ – ٥٢٣ ؛ ومثل هذه الآراء عن العبدرى قد تكون مرجحة ، وصحيح أنه كان غاضبا ، ساخطاً ، لايجد مايرضيه إلا فى النادر ، وأنه كان مشتطاً فى نقده إذا ماقيّس بابن جبير وغيره ؛ إلا أنه لايجب إغفال ظروف عصره الذى عاش فيه ، وأن بعض انتقاداته لم تأت من فراغ . وهو ماسوف يجاب عنه فى متن البحث.

(40) العبدرى : رحلة ، ص ٣٢

(41) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٣٢ ، ٣٣ ؛ والمليكشى وعبدالقوى ربما كان من المرجح عنهما أنهما من الثوار أو المنتزين المتطلعين الى الحكم ، وقد ذكر العبدرى فى موطن آخر فى رحلته المليكشى باسم " منصور صاحب مليكش " وجاء فى حاشية التحقيق أن مليكش قبيل من صنهاجة كانت له إيالة ببسيط متيجة قضى عليها بنو مرين عندما استولوا على المغرب الأوسط ، وربما يفهم من هذا أنهما من الخارجين على السلطة فى تلمسان إبان حكم أبى سعيد عثمان بن يغمراس بن زيان ملك تلمسان بين سنتى " ٦٨١ – ٧٠٣ هـ / ١٢٨٢–١٣٠٣ م" وهى الفترة المتزامنة مع رحلة العبدرى .

انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٤٨ وحواشى التحقيق رقم (٢) و (٣) من نفس الصفحة .

(42) يتضح هذا من خلال حديث ابن حوقل عن أهل الأندلس فى عهد الناصر ووصفهم بالبعد عن الشجاعة والفروسية ، وهو ما لا ينطبق عليهم فى عهد عبدالرحمن الناصر. انظر. ابن حوقل : أبو القاسم محمد ت " ٣٢٢ هـ /٩٣٣ م " صورة الأرض ، مكتبة دار الحياة بيروت ص ١٠٤ ، ١٠٨ ؛ وابن حوقل من دعاة التشيع ، ونقده ليس موضوعيا . انظر . محمود على مكى : التشيع فى الأندلس حتى نهاية الدولة الأموية ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، مج ٨ ، عدد ١-٢ ، ١٩٥٤ ص ١١٥ .

(43) انظر . حسين مؤنس : موجز تاريخ الفكر العربى ، ط ١ دار الرشاد ١٩٩٦ . ص ٧٣ .

(44) انظر . مؤنس : المرجع السابق ، موجز ، ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ (حيث يتحدث عن مشكلة الحكم)

(45) العبدرى : رحلة ، ص ٣٣ .

(46) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٣٤ ؛ ويمكن القول أن العبدرى كان مبالغاً فى إضفاء صفة الأمان على عهد أبى يعقوب يوسف المرينى ، فقد أُبتلى فى عهده بالثائرين والطامعين فى عرشه ، فضلاً على حربة لنصارى إسبانيا ، وسعيه للقضاء على دولة تلمسان ، ثم حدوث حادث اغتياله على يد أحد خصيانه بتدبير جواريه . عن عهد أبى يعقوب يوسف المرينى . انظر . مؤنس : تاريخ المغرب ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ٣١-٣٥ ؛ ولكن ربما كان عهده أحسن حالاً من بقية العهود المتأخرة من حكام بنى مرين .

(47) العبدرى : نفس المصدر ، ص ٢٠٣ ؛ وبرقة اسم صقع كبير يشمل على مدن وقرى بين الأسكندرية وإفريقية ؛ وفى معجم البلدان للأستاذ الزاوى أنها المنطقة الواقعة بين عقبة السلوم شرقاً ، وحدود طرابلس غربا . انظر . ياقوت الحموى : شهاب الدين أبى عبدالله ت " ٦٢٦ هـ /١٢٢٨ م " معجم البلدان ، مج ١ ، ط٢ ، دار صادر بيروت =

= ١٩٩٥ ص ٣٨٨ – ٣٨٩ ؛ الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبية ، ط ١ مكتبة النور – طرابلس ١٩٨٦ . ص ٥٦ .

(48) العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٢٠٣

(49) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(50) العبدرى : نفس المصدر ، ص ٤٨٤

(51) انظر . العبدرى : نفسه ، ص ٤٨٤ ؛ ونفطة بلدة فى قصطيلية من بلاد الجريد فى إقليم أفريقية ، وجربة جزيرة قريبة من قابس . انظر عنهما . الحميرى : كتاب الروض المعطار ، ص ٥٧٨ ، ١٥٨ .

(52) العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٤٣ .

(53) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٤٤؛ وبلاد القبلة لعلها من بلاد السوس الأقصى ، بحكم قربها من بلاد حاحا . انظر . ليون الإفريقى : وصف أفريقيا ، جـ ١ ، ص ١١٣ .

(54) العبدرى : نفس المصدر ، ص ٤٤

(55) العبدرى : نفسه ، ص ٤٤

(56) العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٤٨٣ ؛ ومسلاتة إقليم على شاطئ البحر المتوسط ، بعيد بنحو خمسة وثلاثين ميلاً عن طرابلس ، وفى حاشية المترجمين تقدير بعد المسافة بين مسلاتة وطرابلس بنحو " ٦٥ " ميلاً . انظر. ليون الإفريقى : وصف أفريقيا ، ٢/ ص ١١١ وحاشية رقم ١٠٢ من نفس الصفحة .

(57) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٤٨٦ ؛ وقصر الجم هو قصر الكاهنة ، وبينه وبين المهدية من البلاد الإفريقية ثمانية عشر ميلاً ، ويعرف أحيانا بقصر الأجم ، وهو قصر عجيب البنيان . انظر عنه . الحميرى ، الروض ، ص ١٣

(58) العبدرى : نفس المصدر ، ص ٥٦٢ .

(59) العبدرى : نفسه ، ص ٤٥ .

(60) انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٥٦٢ ، ٥٦٣ ؛ والخفارة هى مايؤديه المستجير لمن يحميه ويخفره ، إذ أنه كان حامياً وكفيلاً له ؛ وعن مادة خفر ومشتقاتها

ومعناها. يمكن الرجوع إلى . ابن منظور : جمال الدين محمد ت " ٧١١ هـ /١٣١١م"= = لسان العرب ، ج٢ ، تحقيق : عبدالله على الكبير وآخرين ؛ دار المعارف ، دون تاريخ . ص ١٢٠٩ ؛ ١٢١٠ ؛ وانظر حاشية المحقق رقم ٣ من رحلة العبدرى ، ص ٥٦٣ فى التفرقة بين الخفارة بالكسر والضم .

(61) العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٤٨ .

(62) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٥١ ؛ والقاضى العمرانى المذكور لعله الفقيه أبو عبدالله العمرانى أحد كتاب " يعقوب بن عبدالحق المرينى " أمير المسلمين . طبقا لما جاء ذكره فى الذخيرة السنية ، وفى الأنيس . انظر . ابن أبى زرع : الذخيرة ، ص ٨٩ ؛ الأنيس المطرب ، ص ٢٩٩

(63) انظر . العبدرى : نفس المصدر ، ص ٥١ ، ٥٢ ؛ والحديث الشريف المذكور ورد ذكره فى صحيح البخارى فى باب " كراهية الشفاعة فى الحد إذا رفع الى السلطان ، مع اختلاف عما أورده العبدرى فى روايته وهو عن سعيد بن سليمان عن الليث بن ابن شهاب عن عروة عن عائشة . انظر . البخارى : الإمام أبى عبدالله محمد بن اسماعيل ت " ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م " صحيح البخارى ، ج ٨ ، دار ومطابع الشعب دون تاريخ . ص ١٩٩

(64)انظر . العبدرى : نفسه ، ص ٥٠ .

(65) فى الفقرة إشارة إلى حديثين شريفين من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحديث الأول أورده الإمام البخارى بسنده الأعلى إلى عبدالرحمن بن أبى بكرة عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يارسول الله ، قال الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكانت متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت." ، والحديث الثانى أورده الإمام مالك – رضى الله عنه – فى موطأه ، عن صفوان بن سُليم أنه قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم – أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : " نعم " فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم . فقيل

له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال " لا " . انظر . البخارى : الإمام أبى عبدالله محمد بن إسماعيل ت " ٢٥٦هـ / ٨٦٩ م " صحيح البخـارى ، ج٨ ، ص ٤ ؛=
=مالك : الإمام مالك ت " ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م " الموطأ ، تحقيق حامد أحمد الطاهر ، ط ٢ ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ١٤٣٤ هـ /٢٠١٣ م ص ٥٥١. باب رقم ٧ ، ماجاء فى الصدق والكذب .

(66) انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ١٨٠ ؛ وقابس مدينة من بلاد إفريقية ، وهى مدينة بحرية صحراوية ، لأن الصحراء منها قريبة . انظر عنها . الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٥٠ وهى الآن فى دولة تونس . وانظر عنها أيضا . الحسن الوزان : وصف افريقيا ، ٩١/٢ .

(67) العبدرى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ ؛ وقد ورد ذكر زوارة وزواغة فى رحلة التيجانى وبينهما ستة أميال ، وزوارة مدينة صغيرة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط ، وهى تبتعد عن جربة بحوالى خمسين ميلاً شرقاً، وهى الآن تقع ضمن الأراضى الليبية ، وزواغة أيضا من بلاد أفريقية ، وسميت بهذا الاسم نسبة الى قبيلة من البربر . انظر عنهما . التيجانى : أبو محمد عبدالله ت عاش أوائل ق "٨ هـ /١٤م " رحلة التيجانى ، قدم لها : حسن حسنى عبدالوهاب ، الدار العربية للكتاب ليبيا – تونس ١٩٨١ ص ٢١٠ – ٢١١ ؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٩٥ ، الوزان : المصدر السابق ، ٩٦/٢ .

(68) انظر . عبدالعزيز المجدوب : الصراع المذهبى بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، ط ٣ ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٥ . ص ١١٠ –١١١ ؛ والإباضية من المذاهب التى انتشرت فى بلاد المغرب فى أوائل ق ٢ هـ /٨ م ، على يد سلمة بن سعيد أول دعاة المذهب الإباضى ، وهم أصحاب " عبدالله بن إباض " الذى دعا الى مذهبه أواخر القرن الأول الهجرى ، فى عهد عبدالملك بن مروان ، الخليفة الأموى ، وذكر عنهم ابن حزم الأندلسى أنهم أقرب فرق الخوارج إلى أهل السنة . انظر . ابن حزم : أبو محمد على ت " ٤٥٦ هـ /١٠٦٣ م " الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ج ٢ ، مكتبة صبيح ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٠٦ ؛ الشهر ستانى : أبو الفتح محمد بن عبدالكريم ت

548 "هـ /١١٥٣ م " ؛ الملل والنحل ، تحقيق : خيرى سعيد ، ج١ ، دار التوفيقية للتراث القاهرة دون تاريخ . ص ٩٥-٩٦ ؛ وانظر عن نشأة المذهب الإباضى عامة = = سعد زغلول عبدالحميد : تاريخ المغرب ، ج ١ ، منشأة المعارف . ص ٣١٩ ؛ وثمة دراسات متخصصة تشير إلى الإباضية أيضاً بأنهم أكثر الخوارج اعتدالاً ، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيراُ ، وأبعدهم عن الشطط والغلو . انظر . محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٤ م ص ٨٢ -٨٣ .

(69) انظر . على يحيى معمر : الإباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى ط ٢ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٩٣ – ص ٥٩ .

(70) جاء فى كتاب الاستبصار ذكر للقبائل الداخلة فى الملة البرغواطية الفاسدة ومنها قبيلة زواغة . انظر . كاتب مراكشى من ق " ٦ هـ /١٢ م " كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق : سعد زغلول عبدالحميد ، مشروع النشر المشترك (بغداد – المغرب) ١٩٨٥ – ص ٢٠٠ .

(71) انظر . الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٩٥ ؛ وبرغواطة هم هراطقة المغرب الأقصى ، بدأ ظهورهم فى أوائل ق ٢ هـ / ٨ م ، واتخذوا من إقليم تامسنا مقراً لهم ، وكانت بدايتهم على يد صالح بن طريف ، وهناك الكثير من الدراسات التى فندت معتقداتهم الفاسدة . انظر على سبيل المثال منها . محمود اسماعيل : مغربيات "دراسات جديدة " ، فاس ١٩٧٧ ص ٥٣ ؛ محمد الطالبى وإبراهيم العبيدى : البرغواطيون فى المغرب ، ط ١ ، تانسيفت ، الدار البيضاء ١٩٩٩ . ص ٦-٢٨ ، ٤٢-٦٨ ؛وممن كتبوا عن برغواطه أيضا د . سحر سالم فى كتاب لها بعنوان : من جديد حول برغواطه هراطقة المغرب فى العصر الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٣ . مشيرة إلى عقائدهم الغريبة والمتطرفة ، ونشأة كيانهم السياسى انظر . سحر سالم : من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب فى العصر الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ١٩٩٣ . ص ٣- ٢٥ .

(72) لمزيد من التفاصيل حول حديث العبدرى عن طرابلس والمقارنة بينها وبين تونس . انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ١٨٤-١٨٥ .

(73) انظر حديث العبدرى عن سرت ضمن رحلته ، ص ٢٠١ وقوله عنها :

ياسـرت لاسـرت بك الأنفس لسـان مدحى فيكم أخرس =

= كما قال عن سرت أنه لم " يعمرها إلا الأعراب " ؛ وقد رأيت بنفسى غلبة الطابع البدوى على معظم جهات ليبيا ، خاصة فى الجنوب .

(74) العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٢٠٤

(75) العبدرى : المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(76) انظر فى تفاصيل الأحداث المذكورة . محمد الفاسى : أبو عمران الفاسى والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس ، المناهل ، العدد ١٧ ، السنة السابعة ، جمادى الأول ١٤٠٠هـ – مارس ١٩٨٠م ص ١٥٥–١٥٦ ؛ والأحداث المذكورة إجمالاً تشير إلى الفترة الأولى من قيام دولة المرابطين ونشأتها ويمكن الرجوع فى هذا الشأن إلى . أحمد مختار العبادى : الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الأسكندرية العدد ٢١ ، الأسكندرية ١٩٦٧ ص ٤٨–٥٢ .

(77) العبدرى : نفس المصدر ، ص ٨٣ ؛ وبجاية هى مدينة عظيمة على ضفة البحر ، وهى قاعدة الغرب الأوسط . انظر . الحميرى : الروض ، ص ٨٠

(78) بلغ عدد تراجم الغبرينى (١٠٨) من الأعلام الذين سكنوا بجاية ، فضلاً على مشيخة المؤلف ، وفى مقدمة نشر عنوان الدراية مايشير الى ازدهار بجاية . انظر .

الغبرينى : أبو العباس أحمد ت " ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : عادل نويهض . ط ٢ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩ . ص ٧ – ١٥ (مقدمة أ . عادل نويهض)

(79) العبدرى : نفسه ، ص ٨٢ .

(80) انظر على سبيل المثال حديثه عن قابس وإشادته بآحاد الفضلاء والصلحاء ، ولكنهم طبقا لقوله " كالشعرة البيضاء فى اللمة السوداء " انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ١٨٢ .

(81) من هؤلاء الذين حرص على لقائهم والاستماع منهم الشيخ الفقيه أبى محمد عبدالله بن هارون القرطبى الذى التقى به فى تونس ، وحرص على استجازته ، وكذلك أجاز ولده محمداً . انظر . العبدرى : المصدر السابق ، ص ١١٤-١١٥ .

(82) العبدرى : نفس المصدر ، ص ٤٩ ، ٥٠.

(83) العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ١١٣ .

(84) انظر . العبدرى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١١٠ ، ١١١

(85) العبدرى : نفس المصدر ، ص ١٨٢

(86) العبدرى : نفسه ، ص ٤٨٨ ؛ وسوسة من بلدان أفريقية ، وهى على ساحل البحر . انظر . الحميرى : الروض المعطار ، ص ٣٣١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، مج ٣ ، ص ٢٨١ .

(87) انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ١٥٧ – ١٥٩.

(88) انظر . العبدرى : المصدر السابق ، ص ١١٤ – ١١٥ ؛ وانظر حاشية رقم ٤ فى التعريف بابن هارون من ص ١١٤ .

(89) انظر . العبدرى : نفس المصدر ، ص ١١٦ – ١١٧ ؛ وحاشية رقم (٣) للمحقق ص ١١٦ فى التعريف بأبى جعفر اللبلى .

(90) انظر . العبدرى : نفسه ، ص ١١٧ ، ١١٨ وفى الصفحتين المذكورتين تعريف وافِ بأبى عبدالله النفزى الشهير بابن هُريرة .

(91) انظر . العبدرى : رحلة ، ص ٤٨٩ – ٤٩٠ وفيهما تعريف بابن الغماز

(92) العبدرى : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(93) انظر . العبدرى : نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

(94) العبدرى : نفسه ، ص ٤٨٤ .

(95) العبدرى : رحلة ، ص ٥٥٨ ؛ والملاحظ أن أغلب الشخصيات التى يلتقى بها ، أو يحرص على لقائها تنتمى فى أصولها الى الأندلس كماهو الحال عند ذكر ابى الحسين الرندى وغيرهم مماسبق ذكره فى متن البحث .

(96) انظر . العبدرى : المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(97) انظر . العبدرى : نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

(98ا) نظر . العبدرى : نفسه ، ص ٢٠٧ .

(99) انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٢٠٧

(100) ناقشت فى رسالتى للدكتوراة مسألة الفترة العمرية للمرحلة الأولى من التعليم ، معتمداً فى ذلك على ماذكره القدامى من المؤرخين والعلماء فى كتاباتهم فى هذه الجزئية انظر . عادل يحيى : العلم والتعليم فى المغرب العربى ، رسالة دكتوراة . غير منشورة ، جامعة عين شمس ، القاهرة ٢٠٠٢ . ص ٨٤-٨٥ .

(101) انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٤١ ؛ والآية المذكورة من سورة الطلاق ، من الآية رقم ٣ ؛ وعن الكتَّاب فى بلاد المغرب العربى يمكن الرجـوع إلى .

عادل يحيى : المرجع السابق ، ص ١٥٣ – ١٥٩

(102) انظر . العبدرى : المصدر السابق ، ص ٥٥٧ ، وفى نفس الصفحة ترجمة وافية بأبى العباس البطرنى .

(103) انظر . العبدرى : نفس المصدر ، ص ١٦١ ؛ وسحنون هو الإمام عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخى المتوفى سنة "٢٤٠ هـ /٨٥٤ م " ، وهو أشهر من أن يترجم له فى تاريخ أفريقية والمغرب . وانظر فى ترجمته على سبيل المثال ابن فرحون : الديباج المذهب ، مج ٢ ص ٣٠-٤٠ ترجمة رقم ١ ؛ أما ابن القاسم فهو عبد الرحمن بن القاسم المتفقه على يد الإمام مالك والمتوفى بمصر سنة " ١٩١ هـ / ٨٠٦م " انظر فى ترجمته . ابن فرحون : المصدر السابق ، مج ١ ص ٤٦٥ – ٤٦٨ ترجمة رقم ٢ .

(104) انظر . العبدرى : نفسه ، ص ١٦٢ ؛ ولمزيد من التفاصيل حول قصة مصحف سيدنا عثمان بن عفان – رضى الله عنه – ودخوله إلى الأندلس يمكن الرجوع الى المقرى : نفح الطيب ، مج ٢ ، ص ١٣٦ – ١٤٥ ؛ سحر السيد عبدالعزيز سالم : أضواء على مصحف عثمان بن عفان ورحلته شرقاً وغرباً ،مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ١٩٩١ ص ٥٠ ، ٥٥-٦٧ .

(105) انظر . العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ وفيهما تعريف بالشيخ الخلاصى الأندلسى ؛ وقد ناقشت مسألة الخرقة عند الصوفية فى رسالتى للدكتوراة عند

الحديث عن " نهاية تعليم المريد " مفنداً الآراء حولها ، ومعرفاً أيضا بالشيخ الخلاصى ، أو الخلاســى وشــيخه ابن مســدى . انظر . عادل يحيى : نفس المرجع ، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(106) العبدرى : رحلة العبدرى ، ص ٤٩٨ .

(107) انظر . العبدرى : المصدر السابق ، ص ٤٩٨ .

(108) من أمثلة هؤلاء العلماء الذى التقى بهم العبدرى فى تونس وأخذ عنهم ، وحرص على استجازاتهم .

-الفقيه أبى محمد عبدالله بن محمد بن هارون القرطبى .

-الشيخ النحوى الأديب أبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلى .

-الشيخ الفقيه أبى عبدالله محمد بن عبدالمعطى بن محمد النفزى ، المشهور بابن هُريرة ؛

-هذا فضلاً على علماء آخرين حرص على لقائهم والأخذ عنهم أثناء العودة من رحلته ، وأثناء إقامته بتونس ، وخارج عن القصد الاحصاء .

-انظر . العبدرى : نفس المصدر ، ص ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ؛ ومن أمثلة العلماء الذين التقى بهم فى تونس عند العودة ابن الغماز ، أبو القاسم اللبيدى ، وأبو محمد الخلاصى .

-انظر . العبدرى : نفسه ، ص ٤٨٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر- :

ابن أبى دينار : محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى ت بعد سنة " ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١م "
-المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ، ط ٣ ، دار المسيرة – مؤسسة سعيدان ١٩٨٣
ابن أبى زرع : أبو الحسن على ت " ٧٢٦ هـ /١٢٢٥ م "
-الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور للطباعة والوراقة . الرباط ١٩٧٢
البخارى : الإمام أبى عبدالله بن محمد اسماعيل ت " ٢٥٦هـ /٨٦٩ م "
-صحيح البخارى ، ج ٨ ، دار ومطابع الشعب دون تاريخ .
التيجانى : أبو محمد عبدالله عاش أوائل ق " ٨ هـ /١٤ م "
رحلة التيجانى ، قدم لها : حسن حسنى عبدالوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ١٩٨١ .
ابن حزم : أبو محمد على ت " ٤٥٦ هـ /١٠٦٣ م "
-الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ج ٢ ، مكتبة صبيح ، القاهرة ١٩٦٤.
ابن الأحمر : إسماعيل بن يوسف توفى بفاس " ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م"
-روضة النسرين فى دولة بنى مرين ، تحقيق : عبدالوهاب بن منصور ، ط ٢ ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٩١
الحميرى : أبو عبدالله محمد عبدالمنعم ت " ٨٦٦ هـ /١٤٦١ م "
-كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، ط ٢ ، مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠
ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت " ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م "
-كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ... ، مج ٦ ، ط ١ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢
ابن زاكور الفاسى : محمد ت " ١١٢٠ هـ /١٦٩٩ م "
-نشر أزاهر البستان فيمن أجازنى بالجزائر وتطوان ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٦٧ .
الشهر ستانى : ابو الفتح محمد بن عبدالكريم ت " ٥٤٨ هـ /١١٥٣ م "

–الملل والنحل ، تحقيق : خيرى سعيد ، ج١ ، دار التوفيقية للتراث القاهرة ، دون تاريخ .

العبدرى : أبو عبدالله محمد ت بعد سنة " ٧٠٠ هـ /١٣٠٠ م "

–رحلة العبدرى ، تحقيق وتقديم : على ابراهيم كردى ، ط ١ دار سعد الدين ، دمشق ١٤١٩ هـ /١٩٩٩ م

الغبرينى : أبو العباس أحمد ت " ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م "

–عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : عادل نويهض، ط ٢ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩

ابن فرحون : القاضى برهان الدين ت " ٧٩٩هـ /١٣٩٦م "

–الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المدهب ، مج ٢ ، تحقيق : محمد الأحمدى أبو النور ، دار التراث القاهرة ١٩٧٤. .

القرآن الكريم : طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦هـ

كاتب مراكشى : من كتاب ق " ٦ هـ /١٢ م "

–كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق : سعد زغلول عبدالحميد ، مشروع النشر المشترك (بغداد ، المغرب) ١٩٨٥

ليون الأفريقى : الحسن محمد الوزان الفاسى ت بعد عام " ٩٥٧ هـ /١٥٥٠ م "

–وصف أفريقيا ، ج ١ ، ج٢، ترجمة عن الفرنسية : محمد حجى ومحمد الأخضر ، ط ٢، دار الغرب الإسلامى ١٩٨٣ .

مالك : الإمام مالك بن أنس ت " ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م"

–الموطــأ ، تحقيق : حامد أحمـد الطاهر ، ط ٢ ، دار الفجر للتراث القاهرة 1434 هـ /٢٠١٣ م.

المقرى : أحمد محمد التلمسانى ت " ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م "

–نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، مج ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، تحقيق : يوسف البقاعى ، ط ١ دار الفكر ١٩٨٦ .

ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ت " ٧١١ هـ /١٣١١ م "

-لسان العرب ، ج٢ ، تحقيق : عبدالله على الكبير وآخرين ، طبعة جديدة ومحققة ، دار المعارف ، دون تاريخ .

ياقوت : شهاب الدين أبى عبدالله ت " ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م "

-معجم البلدان ، مج ١ ، مج٢ ، مج ٣ ، ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٥ .

ثانيا : المراجع باللغة العربية :

أحمد مختار العبادى " د "

-الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الأسكندرية ، العدد : ٢١ ، الأسكندرية ١٩٦٧

حبيبه اليورقادية :

-ملامح الشعوب فى أدب الرحلات ، مجلة المناهل ، عدد ٣ ، سنة ٢ ، يونية ١٩٧٥

حسين مؤنس " د : "

-تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ط ٢ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٨٦ .

-معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ط ٢ دار الرشاد ١٩٩٧ .

-موجز تاريخ الفكر العربى ، ط ١ دار الرشاد ١٩٩٦

-تاريخ المغرب وحضارته ، مج ١ ، مج٢ ، ط ١ العصر الحديث للنشر ، بيروت ١٩٩٢

رشدى فكار" د "

-الأثنوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف فى مدخلهما برحالة الإسلام ، ط ١ دار الآفاق الجديدة ١٩٨٨

رضوان البارودى " د : "

-مشيخة الغزاة فى الأندلس ، ضمن ندوة الأندلس الدرس والتاريخ ، الأسكندرية ١٣-١٩٩٤/٤/١٥ مجموعة بحوث متفرقة قبل جمعها فى مجلد خاص بها.

-سحر السيد عبدالعزيز سالم " د "

-من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب فى العصر الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ١٩٩٣ .

-أضواء على مصحف عثمان بن عفان ورحلته شرقاً وغرباً ، مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ١٩٩١ .

سعد زغلول عبدالحميد " د : "

-تاريخ المغرب ، مج ١ ، منشأة المعارف ، الأسكندرية ، دون تاريخ .

سيد عبدالعزيز سالم " د "

-التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٧

سيدة كاشف " د : "

-مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، ط ٢ الخانجى ١٩٦٧ .

طاهر راغب " د "

-التطور السياسى للمغرب من الفتح الإسلامى إلى آخر القرن العاشر الهجرى ، ط ٢ القاهرة ١٩٩٤

الطاهر أحمد الزاوى :

-معجم البلدان الليبية ، مكتبة النور ، طرابلس ١٩٦٨

عادل يحيى " د : "

-العلم والتعليم فى المغرب العربى من الفتح الى نهاية دولة الموحدين ، دكتوراة عين شمس، القاهرة ٢٠٠٢ م .

عبدالعزيز المجدوب " د "

-الصراع المذهبى بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، ط ٣ ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٥

على يحيى معمر :

-الإباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى ، ط ٢ مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٩٣.

قاسم عبده قاسم " د : "

-الذهب والعاصفة (ضمن كتاب الغرب بعيون عربية) مجلة العربى ، ط ١ الكويت ٢٠٠٥ .

-محمد أبو زهرة : الإمام الشيخ .
-تاريخ المذاهب الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٤ .
محمد بن تاويت :
-الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ، ج ٢ ، ط ١ دار الثقافة – الدار البيضاء ١٩٨٣
محمد الطالبى " د " وابراهيم العبيدى " د : "
-البرغواطيون فى المغرب ، ط ١ ، تانسيفت الدار البيضاء ١٩٩٩ .
-محمد عاطف غيث " د : "
-قاموس علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ١٩٩٨
-محمد العروسى المطوى
-السلطة الحفصية ، تاريخها السياسى ودورها فى المغرب الإسلامى ، دار المغرب الإسلامى ١٩٨٦
محمد الفاسى :
-أبو عمران الفاسى والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس ، المناهل ، العدد ١٧ ، السنة السابعة ، جمادى الأولى ١٤٠٠ – مارس ١٩٨٠ .
محمود اسماعيل " د "
-مغربيات ، دراسات جديدة ، فاس ١٩٧٧ .

ثالثا : المراجع المترجمة أو المعربة : -

أندروإدجار و بيترسيدجويك
-موسوعة النظرية الثقافية ، المفاهيم والمصطلحات الأساسية ، ترجمة : هناء الجوهرى ، مراجعة وتعليق : محمد الجوهرى ط ٢ ، المركز القومى للترجمة ، القاهرة ٢٠١٤.

الملخص

الأثنوجرافيا والسوسيوجرافيا فى الإطار الجغرافى لبلاد المغرب العربى

من خلال رحلة أبى عبدالله محمد ... العبدرى المتوفى بعد سنة " ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م "

بين الموضوعية فى النقد والتطرف فى الرأى

هى دراسة وصفية للشعوب والمجتمعات فى كافة بلدان المغرب العربى ، من خلال رحلة العبدرى ؛ شاملة الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والاجتماعية .

وقد قمت من خلال البحث بالتعريف بأبى عبدالله محمد ... العبدرى المتوفى بعد سنة " ٧٠٠ هـ /١٣٠٠ م " مشيرًا إلى أهمية أدب الرحلات ، وظروف العصر السياسية التى نشأ فيها العبدرى ، والأسباب الداعية إلى رحلته وأهميتها ، ومسلطًا الضوء أيضًا على مفهومى الأثنوجرافيا والسوسيوجرافيا .

ثم يلى ذلك الحديث عن آراء الرجل فى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهجومه على بعض الأجناس والمذاهب الدينية ، ثم حديثه عن المرأة ، وعن الجوانب التعليمية بما فيها من ذكر للسلبيات والايجابيات ، والمقارنة بين مدن المغرب العربى .

وجاءت خاتمة البحث لتبين مدى موضوعية الرجل فى النقد أو تطرفه؛ وتبين للباحثين أيضا مدى أهمية كتب الرحلات فى ميدان البحوث التاريخية .

Abstract

Ethnography and sociography
In the geographical framework of the Maghreb
Through a trip (RIHLAT) Abi Abdullah Mohammed ...AL - ABDRI
AD" 1300 / H 700 "Died after a year
Between objectivity in criticism and extremism in opinion

It Is a descriptive study of peoples and societies in all countries of the Arab Maghreb, through the journey of Al-Abdri; including the political, economic, cultural, educational and social conditions.

In the course of the research, I identified Abi Abdullah Mohammed ... Al-Abdari, who died after 700 H / 1300 AD, referring to the importance of travel literature, the circumstances of the political era in which Al-Abdri was born, the reasons for his journey and importance, and also shed light on the concepts of ethnography and sociography .

And then talk about the views of man in the political, economic and social aspects, and its attack on some races and religious doctrines, and then talk about women, and educational aspects, including the mention of the negative and positive, and comparison between the cities of the Arab Maghreb.

The conclusion of the research was to show the man's objectivity in criticism or extremism; researchers also showed the importance of travel books in the field of historical research .